الروايات انها بلغت مئة الف وقد عرفت تلك الواقعة بأسماء كثيرة منها معركة البحيرة ، وادي لكة ، وداي بكة ، وادي البرباط .... وتشير الأخبار الى أن القوط استهانوا بجيش المسلمين حتى أنهم أعدوا ما يحملون عليه اسراهم ولكن النصر كان مؤزراً واستمرت عملية الفتح عدة سنوات حيث توغل جيش طارق في اعماق شبه الجزيرة الايبرية وكانت انباء الانتصارات تصل الى اسماع موسى بن نصير بالقيروان واستجاب لطارق بامدادات جديدة وسلك طريقا آخر غير الذي سلكه طارق ليكمل عملية الفتح .

عصور الأندلس (*)

لابد لدارس تاريخ الأدب الأندلسي أن يتعرف على المراحل التاريخية التي تعاقبت على الأندلس ممثلة في الأنظمة السياسية التي حكمت شبه الجزيرة الايبرية ، لأن الأدب ـ في مجمله ـ جارى تلك الاحداث السياسية وتفاعل معها ، وانطوى تحت ظل العهود التاريخية التي سادت .

وقد اختلف الباحثون في تحديد هذه المراحل وفي اسمائها . وسنختار الرأي الراجح ، والأكثر شيوعاً في المصادر الحديثة ، ونستطيع أن نجملها في خمسة عهود .

١ ـ عهد الفتح والولاية (٩٢ ـ ٩٥) (٩٥ ـ ١٣٨)

ويشمل هذا العهد فتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد استغرقت عمليات الفتح أربع سنوات ، ثم أعقبه عهد الولاة التابعين لملوك بني أمية في دمشق . وقد كان أول والٍ ، عبد العزيز بن موسى بن نصير وآخر الولاة يوسف الفهري وتولى خلال هذا العهد حوالي عشرين والياً .

٢ ـ العهد الاموي (الامارة ، والخلافة ، والحجابة ، والفتنة) (١٣٨ ، ٣١٦ ، ٣٦٦ ، ٣٩٩)

ويستهل هذا العهد بدخول عبد الرحمن بن معاوية الأندلس وقضائه على آخر والٍ كان يحكمها ، حيث تنقطع الأندلس عن الخلافة ببغداد ويتولى حكم الأندلس سبعة امراء آخرهم عبد الرحمن الثالث الذي يعلن الخلافة لأول مرة سنة ٣١٦ هـ .

(*) ينظر في عصور الأندلس ، التاريخ الاندلس ص ٢٩ ـ ٤٠ ، الادب الاندلسي ص ٢٢ ـ ٣٢ تاريخ العرب وحضارتهم في الاندلس ـ السامرائي وزملاؤه وفي تحديد العصور الأندلسية الصفحات (٢٧ ، ٩٦ ، ١٤٨ ، ٢١٩ ، ٢٤٧ ، ٢٦٠ ، ٢٨٦) .

وقد قسم الدكتور هيكل [1] عصر الامارة من وجهة نظر الدراسة الأدبية وبما يناسبها . الى عهدين . تأسيس الإمارة (١٣٨ ـ ٢٠٦) وصراع الامارة (٢٠٦ ـ ٣٠٠) .

وبعد وفاة الحكم المستنصر بالله سنة ٣٦٦ هـ يتولى هشام الثاني الملقب بالمؤيد وكان حدثاً صغيراً . مما جعل الحاجب المنصور الحاكم الحقيقي لبلاد الأندلس . ولذلك عرف العهد بالحجابة . وقد تولى بعده ولداه عبد الملك وعبد الرحمن . وفي عهد الأخير تضعف سيادته وتضطرب الأمور حيث تنتقل الأندلس الى عهد جديد أطلق عليه الدارسون عهد الفتنة واستغرق حوالي عشرين عاماً . حكم خلاله ثلاثة عشر حاكماً . ثم ينفرط عقد الأندلس . وتتحول الى دويلات صغيرة تحكمها أسر مشهورة ويسمى العهد عهد ملوك الطوائف .

٣ ـ عهدا ملوك الطوائف والمرابطين (٤٠٠ ـ ٤٨٤) (٤٨٤ ـ ٥٤٠)

ويبدأ الاول بسقوط الدولة الأموية . وقيام ممالك مستقلة بشكل دويلات تماثل عهد الدويلات في المشرق في القرن الرابع الهجري . وقد حكمت الأندلس أسر كثيرة وكيانات متنوعة أشهرها سبع اسرٌ تركزت في أبرز الحواضر الاندلسية . ولم تستمر الحال بملوك الطوائف . حيث عادت الأندلس الى وحدتها السياسية . بدخول المرابطين وقضائهم على ملوكها سنة ٤٨٤ هـ . وكان مقيم تلك الدولة يوسف بن تاشفين . واستمر حكم المرابطين حوالي نصف قرن . حيث اصبحت الأندلس ولاية مرابطية . وتؤذن الاندلس بمغيب شمسهم بعد استقواء الموحدين بقيام الدعوة الموحدية على يد مؤسسها محمد بن تومرت .

٤ ـ عهد الموحدين (٥٤٠ ـ ٦٢٠ هـ)

ويبدأ هذا العهد بمجيء عبد المؤمن بن علي (٥٢٤ ـ ٥٤٣) . خلفاً لابن تومرت فمنذ عام ٥٤١ هـ تخضع الاندلس لحكم الموحدين في المغرب وتصبح ولاية تابعة لها . واستمر عهدهم حوالي قرن من الزمان حتى عهد بني الأحمر .

٥ ـ عهد دولة بني الأحمر في مملكة غرناطة (٦٣٥ ـ ٨٩٧ هـ)

وتقوم هذه الدولة في رقعة صغيرة من بلاد الأندلس التي سقطت بأيدي الاسبان ويبقى المسلمون تحت سيادة بني الاحمر في غرناطة ويستمر حكمهم حوالي قرنين

---

(١) الادب الاندلسي ٧٨ ، ١٢٠ .

ونصف . ويمثل عهدهم نهاية الحكم الاسلامي في الاندلس . حتى تسقط دولتهم . هي الأخرى لتؤذن بمغيب شمس الأندلس الساطعة بعد حضارة اسلامية زاخرة استمرت حوالي ثمانية قرون ..

المجتمع الأندلسي :[١]

كان المجتمع الاندلسي بعد الفتح مؤلفاً من عناصر شتى تضم سكان البلاد الاصليين كما تضم الفاتحين المسلمين . وقد تعددت أصول سكان الأندلس وأجناسهم منذ أقدم العصور تبعاً لموجات الغزو والحروب التي تعرضت لها الاندلس فقد نزلها . السلتيون . والجلالقة . والبرابرة . والقرطاجنيون . ثم استولى عليها الرّومان والوندال والقوط .

وقد أطلق المؤرخون على الذين دخلوا الإسلام من أهل البلاد الأصليين (الاسالمة) أو (المسالمة) وأبناؤهم هم (المولدون) وأما (الصقالبة) فهم الذين كان يؤتى بهم من مختلف البلاد الافرنجية اطفالاً ذكوراً واناثاً فترعاهم الدولة ويُنشَّؤون نشأة اسلامية . وقد اكثر منهم الحكم الربضي (٢٠٦ هـ) . كما اطلق على اليهود والنصارى منهم (المعاهدون) أو (المعاهدة) أو أهل الذمة واختلطوا بالمجتمع الأندلسي . وبعضهم الذين قبلوا اللغة العربية وتبنوا بعض العادات الاسلامية سُمّوا بـ (المستعربين)[٢] . واحتفظ عدد كبير من المولدين بأسماء اسرهم القديمة فأبن بشكوال . وبنو قومس . وبنو مرتين . وبنو غرسية[٣] . ولدينا أعلام كثيرة . وأسر شهيرة ذات أصول اسبانية ..[٤]

وقد اطلقت أساميَ جديدة . على فئات من المجتمع الأندلسي عرفت في العصور الأخيرة منها : « المدجنون » وهم الاندلسيون الذين لم يهاجروا من مناطق الأندلس التي سقطت بأيدي الاسبان كما فعل غيرهم ممن هاجر الى غرناطة وشمال افريقية فراراً بدينهم وبأنفسهم . فأطلقت عليهم هذه التسمية التي تصور حالتهم في ظل السلطة الاسبانية .

---

(١) ينظر الأدب الأندلسي ص ٢٤ . فصول في الأدب الاندلسي ص ٢٥ . اشبيلية في القرن الخامس الهجري ٢٩ .

(٢) التأريخ الأندلسي ٢٨٤ . وينظر مقال لويس فلسطين : ثمالة المستعربين في اسبانيا . مجلة المورد . بغداد ٢ / ٤ / ١٩ .

(٣) دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ص ١٥ .

(٤) التأريخ الاندلسي ١٦٤ ـ ١٦٦ .

من المصادر الاولية
المغرب في حلى المغرب
تحقيق الدكتور شوقي ضيف دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٦

أقسامه ومؤلفوه :

هذا الكتاب هو القسم الثالث الخاص بالاندلس من كتاب « المغرب في حلى المغرب » . واما القسمان الآخران فاحدهما خاص بمصر . والآخر ببلاد المغرب . وهو في خمسة عشر سفراً . ستة منها لمصر . وثلاثة لبلاد المغرب . وستة للاندلس . وقد اطلق على هذا القسم من الاصل « كتاب وشي الطُّرس في حلى جزيرة الاندلس » .

الف هذا المصنف بالموارثة . في مئة وخمسة عشر عاماً . ستة من أدباء الاندلس . تداولوه بالتنقيح والتكميل . واحداً بعد واحد . وقد باهى ابن سعيد بذلك في رسالته في فضائل اهل الاندلس[١] .

وفد ابو عبد الله محمد بن ابراهيم الحجاري . على (عبد الملك بن سعيد)[٢] صاحب قلعة بني سعيد . بالقرب من غرناطة سنة ٥٣٠ هـ . وكانت في ظل سيادة المرابطين . فمدحه بقصيدة مطلعها :

عليكَ أحالني الذكر الجميل فجئتُ ومن ثنائك لي دَليلُ

ثم اتفق أن حدَّثه عن شعراء الأندلس . وأدبائها . فأعجب به وأكرمه . وسأله أن يصنف كتاباً فيهم . فصنف (المسهب في غرائب المغرب) . ولم يلبث أن أقبل عبد الملك على الكتاب بالقراءة والتنقيح . والتهذيب . والاضافة . وورثه منه أبناه احمد[٣] ومحمد[٤] . واولهما شاعر . وثانيهما والٍ . واضافا اليه كذلك . واعتنيا به . ثم ال الى ابن ثانيهما موسى بن محمد[٥] (ت ٦٤٠ هـ) فاعتنى به عناية كبيرة واسلم موسى ما بين يديه الى ولده (علي) ليخرجه بصورته النهائية . ثم أصبح الكتاب ينسب اليه .

---

(١) النفح ٢ / ١٨٣

(٢) ترجمتهما في المغرب ٢ / ١٦١

(٣) المغرب ٢ / ١٦٤ ، النفح ٢ / ١٨٣

(٤) المغرب ٢ / ١٦٢ ، النفح ٢ / ٣٣٥

(٥) المغرب ٢ / ١٧٠

ولكل من المؤلفين الستة ترجمة في المغرب[1]، وهم بين أديب وشاعر، وخمسة منهم من أسرة واحدة كما رأينا، وآخرهم أشهرهم وأذيعهم منزلة، في التأليف والتصنيف وقد بذل هو وابوه جهداً كبيراً في تصنيف الكتاب، حتى انهما رحلا الى بعض النبهاء، لما علما أن له كراريس في شعر شعراء الموحدين وسُرّ الأب بها اكثر من سروره بالولاية.

ولعلي بن موسى كتاب آخر على غرار المغرب في الاسم والمضمون سماه (المشرق في حلى المشرق) وهو معارضة لكتاب المغرب وقد بذل في الكتابين الكثير كي تقر عين ابيه بهما، وتم له ذلك ولكن بعد موت ابيه. ولعلي حول وطول وقوة عارضة في ميدان التأليف، فقد أنتقى من كتاب المغرب فألف: «رايات المبرزين وغايات المميزين» وله كتاب «الغصون اليانعة في أخبار المائة السابعة» وكتاب «المرقصات والمطربات» و«الطالع السعيد في تاريخ بني سعيد» و«المقتطف من أزهار الطرف» و«القدح المعلى في التاريخ المحلى» نشر مختصره باسم «اختصار القدح المعلى»[2] ويروي المقرى انه ترك كتابا يسمى «المرزمة» يشتمل على وقر بعير رزم الكراريس.. كان له ديوان متعدد الاسفار، رآه المقري، وما وصل من شعره ينم عن شاعر متوسط في الجودة الفنية كما يرى شوقي ضيف[3]، وقد كتبت دراسات موسعة عن ابن سعيد[4]، وقامت محاولات على جمع شعره[5].

منهج تأليفه

جعل ابن سعيد كتابيه في منهج واحد، المغرب والمشرق، ورتب الكتابين على البلاد يبتدي بكرسي المملكة ومكانتها في الاقاليم، ومن بناها، وما يحيط بها من نهر او خاصة معدنية او نباتية ومن تولاها من الملوك. ثم يتناول الطبقات وهي

---

(١) المغرب ٢ / ١٧٢

(٢) حققه الاستاذ ابراهيم الابياري ط٢ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ١٩٨٠

(٣) مقدمة المغرب ١ / ٩

(٤) ينظر ما كتبه د. محسن حامد العبادي، ابن سعيد الاندلسي حياته وتراثه الفكري والأدبي (ط النهضة المصرية القاهرة ١٩٧٢) وللاستاذ محمد عبد الغني حسن دراسة عنه بعنوان ابن سعيد المغربي، المؤرخ الرحالة، الأديب ط الانجلو المصرية ١٩٦٩

(٥) جمعها وحققها ودرسها وترجمها الى الاسبانية د. عدنان صالح مصطفى، ينظر: كتابه في الشعر الاندلسي ص ٦٤.

خمس ، الأمراء ، الرؤساء والعلماء والشعراء ، واللفيف ، ودار قاعدة المملكة عنده عروس ، وللعروس ، منصة ، وتاج ، وسلك وحلة ، واهداب ، والمنصة ، خاصة بالمعلومات الجغرافية عن القاعدة وما يتصل بذلك ، وأما التاج ، فخاص بالامراء ، واما السلك فبالاشراف والرؤوساء من الوزراء والكتاب والفقهاء والنحاة والمحدثين ، ولكل مجموعة كتابٌ خاص بها داخل السلك .

اما الحلة ، فللفيف ممن ليس له نظم ولا شعر ، والأهداب خاصة بالوشاحين والزجالين ، فاذا كانت المدينة كبيرة وضع لها البساط مقابل المنصة وهذه التقسيمات تشبه الشجرة في كثرة فروعها وهي غير مطردة في جميع الكتاب .

وقد جعل الكتاب في ثلاثة اقسام غرب وموسطة وشرق ، ثم أفرد لكل قسم كتابا على النحو الذي ذكرنا فالكتاب الاول سماه : « العرس في حلى غرب الاندلس » وأقسامه سبعة :

١ ـ كتاب الحلة المذهبَة في حُلى مملكة قرطبة .
٢ ـ كتاب الذهبية الاصيلية في حُلى المملكة الاشبيلية .
٣ ـ الفردوس في حلى مملكة بطليوس .
٤ ـ كتاب الخلب في حُلى مملكة شِلب .
٥ ـ كتابِ الديباجة في حُلي مملكة باجة .
٦ ـ الرياض المصونة في حلي مملكة أشبونة .
٧ ـ خدع الممالقة في حلي مملكة مالقة .

والكتاب الاول ينقسم الى أحد عشر كتاباً وكل كتاب ينقسم الى أقسام أخرى ، واهم مصادر الكتاب : المشاهدة والرواية الشفهية ثم المصنفات التي رجع اليها المؤلفان وقد وضعت في اصل الكتاب لا في الهوامش كما نفعل اليوم وهي كتب جمة كثيرة منها مفقود[١] . وللكتاب قيمة فذة تأتي من هذا الحشد وهو يقوم لنا الشعراء وبيئاتهم وما جرى من أحداث في بلدانهم ثم للكتاب قيمة تكمن فيما اورد من أخبار الوشاحين والزجالين وقد نقل عنه ابن خلدون كثيراً وكذلك المقري باشارة وبدون اشارة .

وقد وقف دارسون كثيرون عند كتاب « المغرب » ضمن ما وقفوا من مؤلفات ابن سعيد . منذ عرفت شخصية علي بن موسى . بضربها في فنون العربية بسهم

---

(١) المغرب ١ / ٢٤

خمس ، الأمراء ، الرؤساء والعلماء والشعراء ، واللفيف ، ودار قاعدة المملكة عنده عروس ، وللعروس ، منصة ، وتاج ، وسلك وحلة ، واهداب ، والمنصة ، خاصة بالمعلومات الجغرافية عن القاعدة وما يتصل بذلك ، وأما التاج ، فخاص بالامراء ، واما السلك فبالاشراف والرؤوساء من الوزراء والكتاب والفقهاء والنحاة والمحدثين ، ولكل مجموعة كتابٌ خاص بها داخل السلك .

اما الحلة ، فللفيف ممن ليس له نظم ولا شعر ، والأهداب خاصة بالوشاحين والزجالين ، فاذا كانت المدينة كبيرة وضع لها البساط مقابل المنصة وهذه التقسيمات تشبه الشجرة في كثرة فروعها وهي غير مطردة في جميع الكتاب .

وقد جعل الكتاب في ثلاثة اقسام غرب وموسطة وشرق ، ثم أفرد لكل قسم كتابا على النحو الذي ذكرنا فالكتاب الاول سماه : « العرس في حلى غرب الاندلس » وأقسامه سبعة :

١ ـ كتاب الحلة المذهبَة في حُلى مملكة قرطبة .
٢ ـ كتاب الذهبية الاصيلية في حُلى المملكة الاشبيلية .
٣ ـ الفردوس في حلى مملكة بطليوس .
٤ ـ كتاب الخلب في حُلى مملكة شِلب .
٥ ـ كتابِ الديباجة في حُلي مملكة باجة .
٦ ـ الرياض المصونة في حلي مملكة أشبونة .
٧ ـ خدع الممالقة في حلي مملكة مالقة .

والكتاب الاول ينقسم الى أحد عشر كتاباً وكل كتاب ينقسم الى أقسام أخرى ، واهم مصادر الكتاب : المشاهدة والرواية الشفهية ثم المصنفات التي رجع اليها المؤلفان وقد وضعت في اصل الكتاب لا في الهوامش كما نفعل اليوم وهي كتب جمة كثيرة منها مفقود[١] . وللكتاب قيمة فذة تأتي من هذا الحشد وهو يقوم لنا الشعراء وبيئاتهم وما جرى من أحداث في بلدانهم ثم للكتاب قيمة تكمن فيما اورد من أخبار الوشاحين والزجالين وقد نقل عنه ابن خلدون كثيراً وكذلك المقري باشارة وبدون اشارة .

وقد وقف دارسون كثيرون عند كتاب « المغرب » ضمن ما وقفوا من مؤلفات ابن سعيد . منذ عرفت شخصية علي بن موسى . بضربها في فنون العربية بسهم

---

(١) المغرب ١ / ٢٤

وافر ، الا أن الدكتور عبد العزيز الاهواني[١] ، وجد في اصدار المؤلف على ان مؤلفي الكتاب كانوا ستة وانهم استغرقوا هذه المدة الطويلة نوعاً من المبالغة ، اذ ان ضآلة مادة الكتاب لا تتناسب مع قرن وبعض قرن من جهاد علمي .. وان الكتاب ليس فيه الاستيعاب والاحصاء الذي يجدر بكتاب ينعت بهذه النعوت ..

نفح الطيب

هذا الكتاب جليل من مصادر المكتبة الاندلسية . قام على طبع القسم الاول منه مبكراً عدد من المستشرقين هم دوزي وكريل ودوجاورايت في ليدن (١٨٥٥ ـ ١٨٦١) وترجم القسم الاول منه جايانجوس باسكوال الى الانكليزية ونشره بعنوان آخر في لندن (١٨٤٠ ـ ١٨٤٣) . وترجمه الى الفرنسية دوزي وديجا بعنوان آخر كذلك[٢] .

وقد طبع اكثر من مرة . طبع في بولاق (١٢٧٩ ـ ١٨٦٢) في اربعة اجزاء وفي الازهرية (١٣٠٢ ـ ١٨٨٤) . في اربعة اجزاء كذلك . ونشره محمد محي الدين عبد الحميد ١٩٤٩ في عشرة اجزاء وطبعات أخريات[٣] . ومن هنا نعلم أهمية هذا الكتاب . واهتمام الباحثين به منذ عهد مبكر .

مؤلفه :

ولد ابو العباس أحمد بن محمد المقري الملقب بشهاب الدين عام ٩٨٦ هـ بمدينة تلمسان بالجزائر . وأصل اسرته من قرية (مَقَرة) بفتح الميم وتشديد القاف المفتوحة وكان آباؤه قد نشأوا فيها وقرأ بهذه المدينة حتى ارتحل في زمن الشبيبة الى فاس . ثم عاد اليها ليهاجر ثانية ويترك مسقط رأسه نهائياً عام ١٠١٣ هـ وأقام مدة طويلة ليغادرها عام ١٠٢٧ هـ الى الشرق حيث أدى الحج وزار المدينة وظل يتردد عليها حتى كان في عام ١٠٣٧ هـ قد زار مكة خمس مرات والمدينة سبع مرات .

---

(١) نقد الدكتور عبد العزيز الاهواني للكتاب في مجلة معهد المخطوطات ١٩٥٥ ، ١ / ٢ / ٢١٢ ، ٢١٤

(٢) النقد الأدبي في كتاب نفح الطيب ١١٥

(٣) مقدمة النفح للدكتور احسان ع. ص ١ / ١٩

وكان له نشاط علمي مشهود خلال زياراته تلك . واستقر فيما بعد في مصر ونشط في التدريس هناك وسافر الى دمشق ليلتقي بعلمائها واعيانها . ولم يتفق لغيره ما اتفق له من الحطوة وإقبال الناس . وقد عاد الى مصر رغم اعجابه بدمشق . وفيها تزوج ورزق ابنة . توفي عام ١٠٤١ هـ وللمقري مؤلفات كثيرة أشهرها هذا الكتاب وكتاب أزهار الرياض [١].

اسباب تأليفه ومنهجه

حدث المقري تلامذته عن لسان الدين بن الخطيب ومكانته السياسية والأدبية فأثار ذلك في نفوسهم العجب والحوا عليه إلحاحاً كثيراً فوعد بكتابة كتاب عنه في القاهرة . وكان يزمع أن يسميه « عرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب » فلما رأى ان المادة التي اجتمعت لديه استفاضت وشملت الأندلس غير اسمه الى « نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب » والحق انّ دوافع التأليف تعدو ما تقدم من قصة لقائه بتلامذته في دمشق وإعجابهم بابن الخطيب . وإنما كان ذلك امراً ساعد على إنجاز فكرة سابقة تجول في فكره . واذا كان إعجاب المقري بابن الخطيب حافزاً قوياً في كتابة مؤلف عنه فإن شعوره بالغربة والحنين الى الماضي لاستعادة ذكرياته عزز فكرة تأليف كتاب شامل عن الاندلس .خاصة بعد ان فارق وطنه وكانت مأساة الاندلس ما تزال ماثلة بين عينيه . ثم إنه كان يشعر بأهمال المشارقة للتراث الأندلسي والمغربي بسبب ضعف الثقافة . ولذلك انصرف لتأليف هذا الكتاب .

كل هذه الدوافع تفهم من مقدمته الطويلة لكتابه التي جاءت في مئة واحدى وعشرين صفحة . وقد جعله قسمين في كل قسم ثمانية أبواب :

القسم الاول : فيما يتعلق بالاندلس من الأخبار .

الباب الأول : في وصف جزيرة الاندلس وخيراتها .

الباب الثاني : في فتح الاندلس على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد .

---

(١) في مؤلفاته تنظر مقدمة المحقق الدكتور احسان عباس ١ / ١١ ـ ١٤ ، النقد الادبي في كتاب نفح الطيب ٤١ ـ ٥٠ .

الباب الثالث : في سرد أعمال الفتح والجهاد بالاندلس .

الباب الرابع : ذكر قرطبة مركز العاصمة ووصفها .

الباب الخامس : في الراحلين من الاندلسيين الى المشرق .

الباب السادس : في الوافدين من المشارقة الى الاندلس .

الباب السابع : في توقد الاذهان و حب الاندلسيين للمعرفة و براعتهم في الاجوبة .

الباب الثامن : تغلب ملوك الافرنج على الأندلس .

اما القسم الثاني :

ففي التعريف بابن الخطيب . وجعله في ثمانية ابواب تناول فيها ذكر أبنائه . وأسلافه ونشأته . وترقيه . ومنافسيه . ومشايخه . ومخاطبات الملوك له . وثناء علماء عصره عليه . وجعل من نثره ونظمه وأزجاله وموشحاته ومصنفاته في الفنون ومؤلفاته ما بقي منها وما كمل وذكر تلامذته الآخذين عنه واولاده المقتفين له .

الفصل الأول

الأدبُ فِي العصرِ الأموي

الولاية . الإمارة . الخلافة

المبحث الأول
الشعر والشعراء

أولاً : الشعر في العصر الأموي :

لابد لدارس الشعر الأندلسي في عصوره الأولى أن يقف باديء ذي بدء على الموثرات التي خضع لها الأدب بشكل عام . حيث يرى الدكتور حكمة الأوسي أن أبرز ظرفين خضع لهما الأدب في القرن الثاني الهجري يتمثلان في[1] :

١ ـ الظروف التي كانت سائدة في الأندلس تلك التي اتسمت بالاضطراب والتنافس بين القبائل العربية المختلفة وقبائل البربر فضلاً عن الاستمرار في عمليات الفتح ومحاربة الاسبان .

٢ ـ التأثير المشرقي وذلك لأن أكثر سكان الأندلس كانوا من النازحين عن بلاد المشرق . وكانت مخيلتهم تحفظ ذكريات عميقة الأغوار عن بلادهم التي غادروها . حيث تذكروا الأهل والخلان . واشتاقوا الى الصحب والأوطان . ولذلك عَبقت أشعارهم بمشاعر فياضة . ودموع سخينة . ذرفوها كلما تاقت أنفسهم الى تلك الرَبوع . ولقد بقيت المؤثرات المشرقية . موصولة ببلاد الأندلس . الى مطلع القرن الرابع الهجري . حيث نلمح سمات نضج واكتمال في الشخصية الأندلسية وأما في القرنين الثاني والثالث الهجريين . فإن الرحلة من المشرق الى الأندلس . وبالعكس كانت الوَرد الذي يروّى الحضارة الأندلسية الناشئة .

ومن السمات الواضحة في الشخصية الأندلسية . مما انعكس على الشعر الأندلسي عدم انصهارها وتوحدها مع البيئة الجديدة . والمجتمع الجديد . كذلك يلاحظ انصراف الأندلسيين عن الثقافة وتفرغهم للحروب والجهاد في سبيل الله حيث اشار بالنثيا الى أن الداخلين الى الأندلس من العرب كانوا جميعاً من المحاربين[2] .

---

(١) فصول في الأدب الاندلسي ٢٨

(٢) تاريخ الفكر الأندلسي ص ١ .

إن قلة ما وصل بين أيدينا من نصوص شعرية كان بسبب الضياع والفقدان إذ ليس من المعقول أن ينحسر الشعر هذا الانحسار في التعبير عن حياة الجهاد والحروب في الأندلس . ومن النّصوص القليلة التي عبّرت عن هذه الحقيقة أبيات أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي . الذي كان يلقّب بعنترة الأندلس . وكان قد شهد فتوح المسلمين بأفريقية قوله في الثأر الذي أخذه لعزيز من قومه [١] :

فليتَ ابن جَواس يخبَر أنني ... سَعيتُ به سعيَ امرئٍ غيرَ غافلِ
قتلتُ به تِسعين نحسبُ أنهم ... جذوع نخيل صُرِّعت بالمسايلِ
ولو كانت الموتى تباعُ اشتريتَه ... بكفّي وما استثنيت منها أناملي

ومن ذلك أبيات لابن قُلزم يخاطب ابن ابي عبيد (ت ٢٨٧ هـ) وذلك في حربه لابن حفصون الذي تآزر مع الاسبان : [٢]

ففي كل صيف وفي كل مشتى ... غزاتان منك على كل حالِ
فتلك تبيدُ العدو وهذي ... تفيدُ الإمام بها بيت مالِ

ومن الموضوعات التي نظم فيها الشعراء في هذا العصر . الشوق والحنين الى بلاد المشرق وبين أيدينا أبيات تنسب لعبد الرحمن الداخل سنقف عندها في موضع آخر من هذه الدراسة .

ويشير الدكتور حكمة الأوسي الى ضرب ثالث من الشعر ذلك الذي صور لنا بعض الكوارث الطبيعية . منها القحط الشديد الذي نزل بالأندلس سنة ٢٧٥ هـ حيث استسقى الناس مراراً حتى ارتفع البأس فقال الشاعر العكي أبياته مصوراً تلك الحالة . يخاطب بها المنذر بن محمد : [٣]

نزل الحيا المحيي وطابت أنفس ... اذ كانَ سوء الظن فيها يهجسُ
أحيا الإله عباده من بعد ما ... كادت من القنط النفوس توسوس
متلافيا فيه بعائد رحمةٍ ... لولا عوائدها طوتنا الا بؤس
ملك الملوك تقدست اسماؤه الـ ... حسنى . وعزّ جلاله المتقدس

---

(١) جذوة المقتبس ص ٢٠٠ ، الأدب الأندلسي ٦٦ .
(٢) البيان المغرب ٢ / ١٢٩ وينظر فصول في الأدب الأندلسي ٤٠ .
(٣) البيان المغرب ٢ / ١١٩ وينظر فصول في الأدب الأندلسي ٤١ .

وأمثال هذه النوازل الطبيعية كثير . فمن ذلك المجاعة التي حصلت بعد القحط المتقدم ذكره بعشر سنوات سنة ٢٨٥ هـ وكان شديداً جداً بحيث جعل الناس يسمون السَنة بها سنة « لم أظن »[١] وليس من المعقول الا يقال فيها شيىء ويتساءل الدكتور الأوسي فيقول ، « فالذي يقول شعراً في مطر يهطل بعد انقطاع وقحط . الا يقوله في مجاعة تعم فتضطرب لها النفوس ويخامر الناس القنوط ؟ » .[٢]

أما الاستاذ عبدالله كنون فيرى أن أكبر ميزات الشعر الأندلسي التي تطالعنا انه شعر حضري لا جاهلية له وليس يُشبهه في ذلك شعر قطر من الاقطار العربية . ولعل مرجع ذلك في البلاد العربية الى جساوة في الطباع . وقساوة في البقاع . فأن الاقليم في الشرق . غيره في الغرب ولا سيما الأندلس والمزاج يتكيف بتكيف الاقليم رقة وغلظة . ولِيناً وشدة . ويخلص الى القول بأن الشعر الأندلسي بقي مصوناً من عنجهية البدو . لا جاهلية له مطلقاً .[٣]

أما الرافعي فيرى أن شعراء العصر الأول بالأندلس أمثال ابي الخطار . والصميل . وأبي الأجرب جعونة . قالوا شعراً على مذهب الأوائل من جاهلية العرب[٤] . لكنّ كنون ينكر أن يكون هؤلاء .. من شعراء الأندلس ! لأنهم كانوا من الطائفة الأولى التي نزحت الى الأندلس . ولأنهم لم ينشأوا فيها ولم يؤثروا فيمن اتى بعدهم[٥] .

ومن المحدثين يجعل الدكتور احمد هيكل أبرز سمات الشعر في عهد الخلافة مركزة في خمس[٦] :

ا ـ ظهور الاتجاه المحافظ الجديد ويريد به الاتجاه المضاد للاتجاه الحديث الذي تزعمه ابو نواس ..

ب ـ تطور الاتجاهات السابقة . المحافظ المحدث والشعبي .

حـ ـ تسرب بعض الأفكار العلمية . على نحو ما نجده في أبيات ابن عبد ربه التي

---

(١) البيان المغرب ٢ / ١٣٩ .

(٢) فصول في الأدب الاندلسي ص ٤١ .

(٣) الشعر الأندلسي ، مجلة المجمع العلمي العربي ٢١ / ٣ / ٢٧١ .

(٤) تاريخ آداب العرب ٢ / ٢٥٩ .

(٥) الشعر الأندلسي مجلة المجمع العربي ٢١ / ٣ / ٢٧١ .

(٦) الأدب الأندلسي ـ ١٩٨ ـ ٢٢٦ .

يناقض فيها فكرة مسلم بن أحمد ابن ابي عبيدة الفلكي المعروف بصاحب القبلة (ت ٢٩٥ هـ) وذلك في قصيدة ينكر فيها كروية الأرض ، وهي من الأبيات الطريفة التي تنبىء عن التقدم العلمي الذي احرزه علماء الأندلس[١] :

أبا عبيدة ما السوآل عن خبر ... تحكيه الاسواءُ والذي سألا
أبيتَ الأشذوذاً عن جماعتنا ... ولم تُصب رأى من أرجى ولا اعتزلا
وقلت أن جميع الخلق في فلك ... بهم يحيط وفيهم يقسم الاجلا
والأرض كُروية حفَّ السماء بها ... فوقاً وتحتاً وصارت نقطة مثلا
صيفُ الجنوب شِتا للشَّمال بها ... قد صارَ بينهما هذا وذا دولا

د ـ الازدواج اللغوي ، وذلك بانتقال بعض الالفاظ من عامية الأندلس الرومانثية الى الشعر الفصيح ، وهي ظاهرة لا تقتصر على هذا العصر بل تتصل بالعمر المديد الذي عاشته الأندلس ، وقد اشرنا الى هذه الظاهرة حين درسنا خصائص العربية الأندلسية .

هـ ـ تصوير العهد الذهبي في جانبيه الرسمي وغير الرسمي فيما صوره الشعراء في أشعارهم خلال عهد الخلافة حيث بلغت عهدها الذهبي على نحو ما جاء في أبيات المنذر بن سعيد البلوطي ، في تصوير سفارة الروم .. او المناسبات المماثلة أما الجانب غير الرسمي ، فيتمثل في موضوعات الشعر التقليدية التي تعرب عن التقدم في هذا العصر .

أما الدكتور سعد اسماعيل شلبي فيصنف الأدباء الذين وصلت آثارهم الشعرية الى ثلاث طبقات منطلقاً من الطبقات التي اشتغلت به وهي :

١ ـ الامراء ، والمراد بهم أمراء الأندلس وحكامها .
٢ ـ الفرسان ومنهم سعيد بن جودي والصميل .
٣ ـ الشعراء والمراد بهم الشعراء الذين تفرغوا لقول الشعر وانصرفوا اليه[٢] .

واذ يقرر الدكتور بدير متولى حميد قلة مصادر الشعر الأندلسي في عصوره الاولى ، وقلة الدراسات فيه ، وغلبة السمة المشرقية عليه ، يؤكد لنا أن ظروف

---

(١) تاريخ علماء الأندلس ١٢٦ رقم ١٤٢٠ .
(٢) ابن حمديس الصقلي حياته من شعره ، د . سعد اسماعيل شلبي ص ٢٤ (مكتبة غريب ١٩٧٧) .

الأندلس الاولى كانت صارفاً للعرب عن الاتجاه نحو البيئة الجديدة . فلم يحسوا جمالها ولم يتأثروا بها[1] .

ومن هنا يخلص الباحث الى صورة مصغرة للأدب الأندلسي بشكل عام ـ في عصوره المتقدمة وهذه الصورة ستتضح ابعادها كلما وقفنا على مزيد من النصوص . والوثائق التي لم يصل منها الا النزر اليسير .

وفيما يلي سنتوقف عند أبرز شاعرين في هذا العصر هما :

١ ـ عبد الرحمن الداخل .
٢ ـ يحيى الغزال .

عبد الرحمن الداخل (١١٢ ـ ١٧٢ هـ)[*] :

اذا كان الشعراء يحتاجون الى تعريف . فمن من أبناء العربية لا يعرف الأمير الشاعر . وقد ذاع من أخباره وأنبائه . ما سار مسار الأمثال . في مضمار الشجاعة والبأس ؟

نشأ في كنف جده هشام بعد موت أبيه معاوية . وهو صغير السن . وما كاد يشب عن الطوق . وقبيل بلوغه سن العشرين حتى سقطت دولة الأمويين . وأخذ العباسيون يتعقبون من بقى من بيت الحكم الأموي . وفر عبد الرحمن بسبب ذلك الى المغرب . ثم أخذ يوطّد لنفسه الامور . ويستعيد مجد آبائه حتى تكللت محاولته بالنجاح بعد حوالي خمس سنوات من فراره وذلك سنة ١٣٨ هـ .

لقد روى عبد الرحمن قصة فراره من الموت الزؤام . حين قدم بنو العباس يبحثون عنه . ولندع الشاب الأديب يحدثنا باسلوبه الشائق . عن تلك الأيام العصيبة . بلغة أدبية رائعة . تمثل صورة من صور النثر الفني حرصنا على ايرادها لأنها نص نثري متميز . يقول :

« وإني لجالس يوماً في قرية على شط الفرات . في ظلمة بيت تواريت فيه لرمد كان بي . وابنى سليمان يلعب أمامي . اذ دخل الصبي فزعاً باكياً . فأهوى الى

---

(١) قضايا اندلسية ٧ .

(*) ينظر في ترجمته : أخبار مجموعة ٤٩ وما بعدها . الحلة السيراء ١ / ٢٥ ـ ٤٢ . البيان المغرب ٢ / ٤٧ ـ ٦١ تاريخ الأدب العربي ـ عمر فروخ ٤ / ٨١ ـ ٨٣ .

الأندلس الاولى كانت صارفاً للعرب عن الاتجاه نحو البيئة الجديدة . فلم يحسوا جمالها ولم يتأثروا بها[1] .

ومن هنا يخلص الباحث الى صورة مصغرة للأدب الأندلسي بشكل عام ـ في عصوره المتقدمة وهذه الصورة ستتضح ابعادها كلما وقفنا على مزيد من النصوص . والوثائق التي لم يصل منها الا النزر اليسير .

وفيما يلي سنتوقف عند أبرز شاعرين في هذا العصر هما :

١ ـ عبد الرحمن الداخل .
٢ ـ يحيى الغزال .

عبد الرحمن الداخل (١١٢ ـ ١٧٢ هـ)[*] :

اذا كان الشعراء يحتاجون الى تعريف . فمن من أبناء العربية لا يعرف الأمير الشاعر . وقد ذاع من أخباره وأنبائه . ما سار مسار الأمثال . في مضمار الشجاعة والبأس ؟

نشأ في كنف جده هشام بعد موت أبيه معاوية . وهو صغير السن . وما كاد يشب عن الطوق . وقبيل بلوغه سن العشرين حتى سقطت دولة الأمويين . وأخذ العباسيون يتعقبون من بقى من بيت الحكم الأموي . وفر عبد الرحمن بسبب ذلك الى المغرب . ثم أخذ يوطّد لنفسه الامور . ويستعيد مجد آبائه حتى تكللت محاولته بالنجاح بعد حوالي خمس سنوات من فراره وذلك سنة ١٣٨ هـ .

لقد روى عبد الرحمن قصة فراره من الموت الزؤام . حين قدم بنو العباس يبحثون عنه . ولندع الشاب الأديب يحدثنا باسلوبه الشائق . عن تلك الأيام العصيبة . بلغة أدبية رائعة . تمثل صورة من صور النثر الفني حرصنا على ايرادها لأنها نص نثري متميز . يقول :

« وإني لجالس يوماً في قرية على شط الفرات . في ظلمة بيت تواريت فيه لرمد كان بي . وابنى سليمان يلعب أمامي . اذ دخل الصبي فزعاً باكياً . فأهوى الى

---

(١) قضايا اندلسية ٧ .

(*) ينظر في ترجمته : أخبار مجموعة ٤٩ وما بعدها . الحلة السيراء ١ / ٢٥ ـ ٤٢ . البيان المغرب ٢ / ٤٧ ـ ٦١ تاريخ الأدب العربي ـ عمر فروخ ٤ / ٨١ ـ ٨٣ .

حجري ، فجعلت أدفعه لما كان بي ، ويأبى الا التعلق بي ، وهو دهش يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع ! فخرجت لأنظر فاذا بالرُّوع قد نزل بالقرية ، فنظرت ، فاذا بالرّايات السود عليها منحطة ، واخ لي حدث السن ، كان معي يشتد هارباً ، ويقول لي ، النجاة يا أخي ! فضربت بيدي الى دنانير تناولتها ، ونجوت بنفسي ، والصّبي أخي معي ، واعلمت أخواتي متجهي .. وخرجت ، فكمنت في موضع نإء عن القرية ، فما كان الا ساعة حتى أقبلت الخيل فأحاطت بالدار ، فلم تجد أثراً ، ومضيت ولحقني بدر فأتيت رجلاً من معارفي بشط الفرات ، وأمرته أن يبتاع لي دواب ، وما يصلح لسفري ، فدَلَّ علي عبد سوء له . فما راعنا إلا جلبة الخيل ، تحفزنا فسبحت حالماً لنفسي ، وسبح الغلام أخي .. »[1] .

ويُغرر بأخيه وينجو عبد الرحمن محتملاً في أخيه ثكلاً . ملأه مخافة . ثم يستقر به الأمر ليرحل الى المغرب . ويبدأ مرحلة جديدة من حياته . حيث يجمع أنصاراً وأصدقاء . وينازل آخر ولاة الأندلس يوسف الفهري . ويدخل قرطبة سنة ١٣٨ هـ .

لقد أفاضت المصادر التاريخية في الحديث عن منجزات الأمير على المستويين الداخلي والخارجي وقد تناولت منجزاته تلك دراستان موسعتان[2]. وقد تلقب بألقاب كثيرة منها ،
« الداخل » ومنها « صقر قريش » واللقب الأول يرد في قصيدة له مطلعها[3]:

لا يلف ممتن علينا قائل لولاي ما ملك الأنام « الداخل »

وأما اللقب الثاني فقد اطلقه عليه « المنصور العباسي » الذي كان مأخوذاً به الى حد جدُّ بعيد[4] .

لقد كان عبد الرحمن فرعاً من شجرة البيت الأموي الفينانة . التي تحدث المؤرخون عن ملكهم لأعنة البيان . واستحواذهم على ناصيته . « فلو زعم أحد أنّه لم

---

(١) أخبار مجموعة ٦٢ ، النفح ٢ / ٢٧ .

(٢) الاولى ، دراسة السيدة فريدة رؤوف الانصاري بعنوان ، « الامارة الأموية بالأندلس على عهد الأمير عبد الرحمن الداخل رسالة ماجستير بغداد ١٩٧٦ والثانية ، دراسة ابراهيم ياس خضير الدوري بعنوان « عبد الرحمن الداخل في الأندلس وسياسته الخارجية والداخلية » وزارة الاعلام بغداد سنة ١٩٨٢ ، وهي رسالته للماجستير في جامعة الأزهر ١٩٧٩ .

(٣) النفح ٢ / ٤٢ .

(٤) البيان المغرب ٢ / ٥٩ ـ ٦٠ .

يقم احد من أمراء الأندلس وخلفائها الى آخر القرن الخامس الا وهو جامعٌ أسباب الأدب لكان حقيقاً في زعمه بالتصديق .. »[١] .

وما يهمنا ـ في مقامنا هذا ـ الوقوف على الجانب الأدبي . فهو وأن كان مقلاً في الشعر . فأن ما وصل منه على جانب من البراعة . بحيث نجد اشعار كثير من الأمراء . تتضاءل في صدق العاطفة . ازاء ما نظمه عبد الرحمن الداخل . في التشوق والحنين الى أوطانه[٢] .

وقد أبدى النقاد القدماء إعجابهم بشاعريته . فأشار الحجاري (توفي بعد ٥٣٠ هـ) فيما نقله المقري وقال : « كان من البلاغة بالمكان العالي الذي يرتد عنه اكثر بني مروان حسيراً)[٣]

وأعجب ابن الخطيب به فقال « كان عبد الرحمن بن معاوية فصيحاً بليغاً . حسن التوقيع . مليح الفصول . مطبوع الشعر . معدوداً من أهل العلم » . وكانت فصاحته وبلاغته وحسن بداهته مدعاة لاعجاب معاصريه به[٤] .

ومن هنا فقد اجتمع للرجل من المكانة والسلطان . ومن البراعة الفنية وجودة الشاعرية ما أذاع أشعاره وأشهر أدبه ولعل المكانة والسلطان هما السبب المباشر في ذلك على نحو ما يشير ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) الى أن من الشعر ما يروى ويستجاد لنبل قائله[٥] .

شعره

يأتي شعر عبد الرحمن قسيماً لشعر الأمراء والملوك . وقد عنى بدراسة أشعارهم عدد من القدماء والمحدثين[٦] .

ان السمة الاولى التي تميز شعر الامراء والملوك تتمثل في الجانب الانساني الذي تصوره الاشعار . من حياتهم لاسيما إذا غلب الجانب الشعري على الجانب السياسي

---

(١) تاريخ آداب العرب ٢ / ٢٦٩ .

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي ـ ١ / ٩١ .

(٣) النفح ٣ / ٢٩ .

(٤) البيان المغرب ٢ / ٥٨ .

(٥) الشعر والشعراء ١ / ٣١ (ط دار الثقافة) .

(٦) في الحلة السيراء نصوص كثيرة للملوك الشعراء وينظر كتاب الملوك الشعراء للدكتور جبراليل جبور(ط ١ دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨١) شعر الخلفاء في العصر العباسي الأول ، مؤيد فاضل رسالة ماجستير الازهر ـ ١٩٧٨ .

والاداري لتلك الشخصيات . وكان هذا الجانب مستبعداً أن يكون فيهم ، وهم من هم عزاً وجاهاً ، وسطوة وبأساً ، وليس الأمر كذلك فان الملوك والصعاليك متساوون ، فيما يعرض لهم من عواطف انسانية .

ويدور شعر الداخل في مجمله في محورين اثنين هما ،
شعر حماسة وفخر ، وشعر شوق وحنين ،

ومما جاء في المحور الأول فيما رواه ابن فرج الجياني ان آت ممن كان يعرف كلفه بالصيد ، أتاه فأخبره عن غرانق وقعت الى جانب معسكره في احدى حملاته ، وحركه الى اصطيادها[1] :

دَعْنى وصَيْد وقَع الغرانقْ
فأنّ همّى في آصطياد المارقِ
في نفق إن كان أو في حالق
اذا التظت هواجر الطرائق
كان لَفاعي ظلّ بندٍ خافق
غَنيت عن روض وقصرٍ شاهق
بالقَفر والايطان بالسُرادق
فقلْ لمن نام على النمارق
إن العُلا شُدّت بهم طارق
فاركب اليها ثبج المضائق
أولا ، فأنت أرذل الخلائق

والقصيدة على بحر الرجز مشطورة وهو وزن ينسجم مع مثل هذا الموضوع . وأكثر طرديات ابي نواس جاءت في الأراجيز . أما القافية فمؤسسة دخيلة تنتهي بروي قلّما يجيد فيه الشعراء وهو القاف[2] وتسقيم القافية مطلقة ومقيدة اذ تكون مخبونة صحيحة أو مقطوعة في الحالة الثانية ولكل منهما جرس موسيقي خاص والاطلاق آصل لاتفاق الكسر مع لفظ القافية . والرّاجح في الأبيات انها مما قاله ارتجالاً لا سيما أن القدماء يشيرون الى ارتجاله عدداً من القصائد[3] .

---

(١) أخبار مجموعة ١٠٧ ، الحلة السيراء ١ / ٤١ .

(٢) عبد الرحمن الأديب ، ص ١٨٢ ، مقال الدكتور عبد السلام الهراس في مجلة المناهل العدد ٢٢ سنة ١٩٨٢ .

(٣) النفح ٢ / ٤٢ .

ويتمثل في شعره عزة نفسه . وآبائه . فقد بلغه أن بعض أعوانه يمنّ عليه . ويزعم أنه لولاه لما صار اليه من ملك ومجد . ولعل المقصود به هو مولاه بدر . وفي ذلك يقول(١) :

لا يُلفَ ممتنٌ علينا قائلٌ ... لولايَ ما ملكَ الأنامَ الداخلُ
سَعدي وحَزمي والمهنّد والقَنَا ... ومقادرٌ بلغتْ وحال حائلُ
إن الملوك مع الزمان كواكب ... نجم يطالعنا ونجم آفل
والحزم كل الحزم الا يغفلوا ... أيروم تدبير البرية غافل

وأما اشعاره في المحور الثاني ـ الشوق والحنين ـ فقد وصلت منها ثلاث مقطعات منها ما أنشده الحميدي في تاريخه . متشوقاً الى معاهده بالشام(٢) :

ايها الراكب الميمم أرضي ... أقْرِ منى بعضَ السلام لبعض
إن جسمي كما علمت بأرضٍ ... وفؤادي ومالكيه بأرضِ
قدر البين بيننا فافترقنا ... وطوى البين عن جفوني غمض
قد قضى الله بالفراقِ علينا ... فعَسَى باجتماعنا سوف يقضِ

ونظر الى نخلة مفردة فهاجت شجنه وتذكر بلد المشرق فقال(٣) :

يا نخلُ أنت غريبةٌ مثلي ... في الغرب نائية عن الأصل
فابكي وهل تبكي مكبَّسة ... عجماء لم تطبع على خَبْلِ
لو أنها تبكي . اذاً لبكتْ ... ماءَ الفرات ومنبتَ النخلِ
لكنها ذَهَلَتْ وأذهلني ... بغضي بني العباس عن أهلي

ومما قال منها على البديهه . وكان ذلك أول نزوله منية الرصافة . بقرطبة واتخاذه لها(٤) :

---

(١) نفح الطيب ٢ / ٤٢ . وتنظر ابياته التي تجري في هذا الاتجاه ومطلعها :
شتّان من قام ذا امتعاض ... منتضيَ الشفرتين نصلا (نفح الطيب) ٢ / ٤٣ .

(٢) تنظر في الأبيات : جذوة المقتبس ١٠ . الحلة السيراء ١ / ٢٦ ـ ٢٧ . البيان المغرب ٢ / ٨٩ . نفح الطيب ٢ / ٥٤ .

(٣) الحلة السيراء ١ / ٢٧ .

(٤) النفح ٢ / ٥٤ .

تبدّت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت: شبيهي في التغرب والنوى ... وطول التنائي عن بني وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة ... فمثلك في الاقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن من صوبها الذي ... يسح ويستمري السماكين بالوبل

ويناقش ابن الآبار نسبة هذه المقطعات اليه ويدفع ان تكون لغيره بل يثبت نسبتها اليه[1].

ويرى الدكتور عبد السلام الهراس «أن الحاح الشاعر على الفاظ الفراق: (المنتأى. البين. الاقصاء. التغرب. النوى. الافتراق) وانشطار الذات بين المشرق والمغرب. والذهول خلال مقطوعات ثلاث. ليكشف عن مدى تعلقه بالمشرق. وعن عمق المرارة التي يعانيها من التشرد الذي قدر عليه. وظل هذا الشعور قوياً. في اعماقه. رغم ما ادركه من مجد وشاده من ملك»[2].

ويرى كذلك أن أبياته ذات نغمة حزينة أسية لارتباطها بذكريات مؤلمة وبآمال شاحبة. وبأمان تكاد تكون مستحيلة[3].

أما الدكتور احمد هيكل فتستوقفه هذه الأشعار ويجد أن أبرز ما فيها هو عنصر العاطفة حيث استطاع الداخل ان يشخص من النخلة انساناً حياً ويجد بينه وبينها مشاركة وجدانية وعلاقة نفسية جعلته يخاطبها في حنو ويناجيها في عطف. كل ذلك يجعل العنصر العاطفي. أبرز عناصر المضمون الشعري ولذلك يطلق عليها تسمية «التركيز العاطفي» ويجعلها من السمات المميزة لشعر عصر الامارة[4].
ويستحوذ النص الاخير (تبدت لنا..) على اعجاب عبد الله كنون فيري في ابياته نفثة سحرية[5].

وأما المستشرق الروسي كراتشكو فسكي فيرى في أبياته «يا نخل...» أنها تناظر ـ في عاطفتها ـ ابياتاً لمطيع بن اياس (ت ١٦٦ هـ) يخاطب فيها نخلتين في حلوان (في العراق)[6].

---

(١) الحلة السيراء ١ / ٣٧ ـ ٣٨، وينظر دراسات في تاريخ الأدب العربي ٩٩.
(٢) عبد الرحمن الأديب ١٧٨.
(٣) نفسه ١٨٢.
(٤) الأدب الأندلسي ٩٢ ـ ٩٥.
(٥) الشعر الأندلسي، بحث في مجلة المجمع العربي السوري ٣ / ٣ / ٣٧٤ سنة ١٩٥٦.
(٦) دراسات في تاريخ الأدب العربي، ٩٩.

ولقد تقدمت بنا آنفاً ، التفاتة الدكتور احسان عباس الى هذه الناحية . ونلاحظ أن جلّ اشعار الشاعر ، تأتي في الأوزان الخفيفة ، التي تحاكى اضطراب مشاعره وانفعالاته ، بأستثناء النص الأخير ، وقطعة اخرى[١] .

نثره

وأما الجانب الثاني ، من شخصية عبد الرحمن الادبية ، فهو يتمثل في نثره ، فقد كان من ذوي المواهب المزدوجة ، ومجموع ما وصل الينا منه ، لا يتجاوز خمسة عشر نصاً ، بضمنها النص الذي تحدث فيه عن قصة هربه من العباسيين ، وقد أشاد الباحثون به ناثراً كما أشادوا به شاعراً ، وصفه ابن حيان بأنه كان « بليغاً مفوها طلق اللسان ، ويخطب على المنبر »[٢] ويتناول نثره من حيث المضمون ثلاثة اتجاهات رئيسة :

اولها : يتمثل في ثلاثة نصوص جرت في معرض الحوار والمناظرة بينه وبين مولاه بدر ، ومنها ما قاله بدر يمن على مولاه : « بعنا أنفسنا وخاطرنا بها في شأن من هانت عليه لما بلغ أقصى أمله » .

وقال كذلك وقد أمره بالخروج الى غزاة : « انما تعبنا أولاً لنستريح اخراً ، وما أرانا الا في اشد مما كنا » .

ثم كتب له رقعة يذكره بفضله ويُدِل عليه ويلومه فيها ، على اعراضه عنه ، فلما وقف عبد الرحمن على رقعته ، اشتد غيضه عليه فوقّع عليها[٣] « وقفت على رقعتك المنبئة عن جهلك وسوء خطابك ودناءة أدبك ، ولئيم معتقدك ، والعجب أنك متى أردت أن تبني لنفسك عندنا مُتاتاً[٤] ، أتيت بما يهدم كل متات مشيد ، مما تمن به ، مما قد أضجر الأسماع تكراره ، وقدحت في النفوس إعادته ، مما استخرنا الله تعالى من أجله ، على أمرنا بأستئصال مالك ، وزدنا في هجرك وإبعادك ، وهضنا جناح إدلالك ، فلعل ذلك يقمع منك ، ويروعك حتى نبلغ منك ما نريد إن شاء الله تعالى ، فنحن أولى بتأديبك ، من كل أحد ، اذ شرّك مكتوب في مثالبنا ، وخيرك معدودٌ في مناقبنا » .

---

(١) قطعته التي مطلعها :

لا يـلـف مـمـتـن عـلـيـنـا قائـل لو لاي ما ملك الانام الداخل

(٢) النفح ٢ / ٣٧

(٣) النفح ٢ / ٤٠

(٤) الفتات ، ما يمت به كالماته ، الحرمة والوسيلة

ولقد تقدمت بنا آنفاً ، التفاتة الدكتور احسان عباس الى هذه الناحية . ونلاحظ أن جلّ اشعار الشاعر ، تأتي في الأوزان الخفيفة ، التي تحاكى اضطراب مشاعره وانفعالاته ، بأستثناء النص الأخير ، وقطعة اخرى[١] .

نثره

وأما الجانب الثاني ، من شخصية عبد الرحمن الادبية ، فهو يتمثل في نثره ، فقد كان من ذوي المواهب المزدوجة ، ومجموع ما وصل الينا منه ، لا يتجاوز خمسة عشر نصاً ، بضمنها النص الذي تحدث فيه عن قصة هربه من العباسيين ، وقد أشاد الباحثون به ناثراً كما أشادوا به شاعراً ، وصفه ابن حيان بأنه كان « بليغاً مفوها طلق اللسان ، ويخطب على المنبر »[٢] ويتناول نثره من حيث المضمون ثلاثة اتجاهات رئيسة :

اولها : يتمثل في ثلاثة نصوص جرت في معرض الحوار والمناظرة بينه وبين مولاه بدر ، ومنها ما قاله بدر يمن على مولاه : « بعنا أنفسنا وخاطرنا بها في شأن من هانت عليه لما بلغ أقصى أمله » .

وقال كذلك وقد أمره بالخروج الى غزاة : « انما تعبنا أولاً لنستريح اخراً ، وما أرانا الا في اشد مما كنا » .

ثم كتب له رقعة يذكره بفضله ويُدِل عليه ويلومه فيها ، على اعراضه عنه ، فلما وقف عبد الرحمن على رقعته ، اشتد غيضه عليه فوقّع عليها[٣] « وقفت على رقعتك المنبئة عن جهلك وسوء خطابك ودناءة أدبك ، ولئيم معتقدك ، والعجب أنك متى أردت أن تبني لنفسك عندنا مُتاتاً[٤] ، أتيت بما يهدم كل متات مشيد ، مما تمن به ، مما قد أضجر الأسماع تكراره ، وقدحت في النفوس إعادته ، مما استخرنا الله تعالى من أجله ، على أمرنا بأستئصال مالك ، وزدنا في هجرك وإبعادك ، وهضنا جناح إدلالك ، فلعل ذلك يقمع منك ، ويروعك حتى نبلغ منك ما نريد إن شاء الله تعالى ، فنحن أولى بتأديبك ، من كل أحد ، اذ شرّك مكتوب في مثالبنا ، وخيرك معدودٌ في مناقبنا » .

---

(١) قطعته التي مطلعها :

لا يـلـف مـمـتـن عـلـيـنـا قائـل لو لاي ما ملك الانام الداخل

(٢) النفح ٢ / ٣٧

(٣) النفح ٢ / ٤٠

(٤) الفتات ، ما يمت به كالماته ، الحرمة والوسيلة

ويبدو ان العلاقة ازدادت سوءاً بينهما حتى افضت بالامير الى أن يأمر بنفيه عن قرطبة الى أقصى الثغر ويخاطبه بقوله[1]: « لتعلم انك لم تزل بمقْتك حتى ثقلت على العين طلعتك، ثم زدت الى أن ثقل على السمع كلامك، ثم زدت إلى ان ثقل على النفس جوارك، وقد أمرنا بإقصائك إلى أقصى الثغر فبالله إلا ما أقصرت، ولا يبلغ بك زائد المقت إلى أن تضيق بك معي الدنيا، ورأيتك تشكو لفلان وتتألم من فلان، وما تقولوه عليك، وما لك عدو أكبر من لسانك، فما أطاح بك غيره، فأقطعه قبل أن يقطعك ».

وثانيها: يتمثل في خطبه القصيرة الموجزة، وقد جاء منها نصان في وقعة المصارة، التي كان انتصاره فيها فاتحة حكمه في الأندلس، فقد نقل المقري انه لما أنحى أصحابه على أصحاب الفهري بالقتل يوم هزيمتهم على قرطبة قال:[2]: « لا تستأصلوا شأفة اعداء ترجون صداقتهم واستبقوهم لأشد عداوة منهم » يشير الى استبقائهم ليستعان بهم على اعداء الدين.

ولما اشتد الكرب بين يديه يوم حربه مع الفهري ورأى شدة مقاساة أصحابه قال[3]: « هذا اليوم هو أس ما يبنى عليه، إما ذلّ الدّهر وإما عزّ الدهر فأصبروا ساعة فيما لا تشتهون، تربحوا بها بقية اعماركم فيما تشتهون ».

وثالثها: يتمثل في توقيعاته الادبية وأجوبته السريعة في حالات تعرض له كما حصل في جوابه على رجل من جند قنسرين يستجديه[4]. او كما حصل في توقيع له على كتاب جاءه من سليمان الاعرابي كان قد سلك فيه سبيل الخداع فقال[5]: « اما بعد فدعني من معاريض المعاذير، والتعسف عن جادة الصواب، لتَمدنَ يداً الى الطاعة، والاعتصام بحبل الجماعة أو لأزوين بنانها على رضف المعصية، نكالاً بما قدمت يداك وما الله بظلام للعبيد ».

واما ما يتبقى من نثره، فهو يتناول شؤونه الشخصية، ممثلةً في قصة هروبه من العباسيين كما رواها بنفسه، وفي مقالته بعد أن قتل ابن اخيه المغيرة، الذي سعى

---

(١) النفح ٢ / ٤١

(٢) النفح ٢ / ٤٢

(٣) نفسه ٢ / ٤٢

(٤) النفح ٢ / ٣٩

(٥) البيان المغرب ٢ / ٨٦، النفح ٢ / ٣٩

في طلب الامر لنفسه فقتله سنة ١٦٧ هـ[١]، ومحاورته لنكفات زوجة أبي قرّة وانسوس التي أخفته حين هروبه[٢] وهي تجري مجرى الحوار.

والسمة الواضحة في نثر الداخل انه كان جارياً فيه على طريقة المشارقة، ناسجاً على منوالهم، وهو ـ ضمن هذا الاتجاه ـ يميل الى الايجاز[٣] في الكلام وتخير فصيح الالفاظ مع سهولتها، وعدم التعقيد في أساليبها.

يحيى الغزال (ت ٢٥٠ هـ)

اولاً : حياته :

يحيى بن حكم الغزال. ينتسب الى جيان المدينة الاندلسية المشهورة. وأسرته في أصلها تنتمي الى (بكر بن وائل). القبيلة العربية المعروفة. وقد لقبه الأمير عبد الرحمن الاوسط بلقب الغزال. حيث دخل يحيى عليه ذات يوم فحياه بقوله:

« جاء الغزال بحسنه وجماله »

وطلب اليه أن يجيزه فقال[٤]

قال الأمير مداعبا بمقاله، « جاء الغزال بحسنه وجماله »
أين الجمال من امرى أربى على متعدد السُبعين من أحواله ؟

أورد منها ابن عذارى اربعة ابيات. وذكر ان القصيدة طويلة[٥] وقد اضطربت الآراء حول سنة وفاته. إلا أنها تجمع على أنه ناهز المائة ولعل الراجح في وفاته أنها سنة ٢٥٠ هـ. واذا صحت نسبة البيت الذي يقول فيه. اليه[٦]:

ومالي لا أبلى لتسعين حجةً وسبع أتتْ من بعدها سنتانِ

فإن ولادته تكون في حدود سنة ١٥٠ هـ[٧].

---

(١) النفح ٢ / ٤٧
(٢) النفح ١ / ٣٣٣
(٣) ينظر موقفه من كاتبه امية بن يزيد حين اطال كتابة رسالة الى احد عماله فأمر بتمزيق الكتاب وكتب رسالة موجزة بنفسه، البيان المغرب ٢ / ٨٦ ـ ٨٧.
(٤) مجموع شعره ق ٤٠ في فصول الادب الاندلسي ص ١٩٢
(٥) البيان المغرب ٢ / ٩٢
(٦) نفسه ق ٤٤
(٧) ينظر في وفاته، جذوة المقتبس ٣٧٥، بغية الملتمس ص ٥٠٠، المطرب ١٣٧،

في طلب الامر لنفسه فقتله سنة ١٦٧ هـ[١]، ومحاورته لنكفات زوجة أبي قرّة وانسوس التي أخفته حين هروبه[٢] وهي تجري مجرى الحوار.

والسمة الواضحة في نثر الداخل انه كان جارياً فيه على طريقة المشارقة، ناسجاً على منوالهم، وهو ـ ضمن هذا الاتجاه ـ يميل الى الايجاز[٣] في الكلام وتخير فصيح الالفاظ مع سهولتها، وعدم التعقيد في أساليبها.

يحيى الغزال (ت ٢٥٠ هـ)

اولاً : حياته :

يحيى بن حكم الغزال. ينتسب الى جيان المدينة الاندلسية المشهورة. وأسرته في أصلها تنتمي الى (بكر بن وائل). القبيلة العربية المعروفة. وقد لقبه الأمير عبد الرحمن الاوسط بلقب الغزال. حيث دخل يحيى عليه ذات يوم فحياه بقوله:

« جاء الغزال بحسنه وجماله »

وطلب اليه أن يجيزه فقال[٤]

قال الأمير مداعبا بمقاله، « جاء الغزال بحسنه وجماله »
أين الجمال من امرى أربى على متعدد السُبعين من أحواله ؟

أورد منها ابن عذارى اربعة ابيات. وذكر ان القصيدة طويلة[٥] وقد اضطربت الآراء حول سنة وفاته. إلا أنها تجمع على أنه ناهز المائة ولعل الراجح في وفاته أنها سنة ٢٥٠ هـ. واذا صحت نسبة البيت الذي يقول فيه. اليه[٦]:

ومالي لا أبلى لتسعين حجةً وسبع أتتْ من بعدها سنتانِ

فإن ولادته تكون في حدود سنة ١٥٠ هـ[٧].

---

(١) النفح ٢ / ٤٧
(٢) النفح ١ / ٣٣٣
(٣) ينظر موقفه من كاتبه امية بن يزيد حين اطال كتابة رسالة الى احد عماله فأمر بتمزيق الكتاب وكتب رسالة موجزة بنفسه، البيان المغرب ٢ / ٨٦ ـ ٨٧.
(٤) مجموع شعره ق ٤٠ في فصول الادب الاندلسي ص ١٩٢
(٥) البيان المغرب ٢ / ٩٢
(٦) نفسه ق ٤٤
(٧) ينظر في وفاته، جذوة المقتبس ٣٧٥، بغية الملتمس ص ٥٠٠، المطرب ١٣٧،

وتستفيض المصادر الأولية في الحديث عن الشاعر . وأبرز الأحداث التي مرت عليه ويعزز تلك الروايات ما جاء مقترناً بأشعاره . فقد كان متفاعلاً مع أحداث عصره . السياسية . والإجتماعية . وجاءت أشعاره لتصوّر لنا حياته . بكل أبعادها . وشخصيته المتعددة الجوانب .

وفي مقدمة الأحداث التي مرت على الشّاعر . قَبضُه أعشار الغلال في زمن عبد الرحمن الأوسط . وتصرفه بها . فأدّى به ذلك الى السجن . وفيه نظم قصيدته البائية . التي يستعطف فيها الامير . ويطلب العفو منه ومطلعها[1] :

بعض تصابيك على زينب لا خَيَر في الصَّبوة للأشيب

وفيها يتحدث عن استعداده لدفع الأموال التي تصرف بها :

إن تُرِد المالَ فإني أمرؤ لم أجمع المالَ ولم أكسبِ
اذا أخذتَ الحقَ مني فلا تلتمسِ الرّبح ولا تَرغبِ
قد أحسنَ اللهُ الينا معا إن كانَ رأسُ المالِ لم يَذهبِ

ومن الأحداث الأخرى البارزة في حياته . سفارته الى بلاد النورمان عن الامير الأندلسي . ورأى آخرون أنها كانت الى بلاد الروم (القسطنطينية) . ورأى غيرهم انهما كانتا سفارتين اثنتين[2] . واينما صحّت الرواية . فأن الشاعر وصف لنا رحلته في ابياتٍ بارعةٍ . يقول فيها[3]

---

(١) مجموع شعره ق ٤ / ١ ، ١٥ ـ ١٧

(٢) تاريخ الادب الاندلسي (عصر سيادة قرطبة) ١ / ١٦١ ، دولة الاسلام في الاندلس ٢٧٨ ، الاسلام في المغرب والاندلس ١١٢ ، غارات النورمانيين على الاندلس ص ٢٨ مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ٢ / ١ / ١٩٤٩ ،

وقد اختلفت المصادر الأولية في وجهة هذه السفارة ففي الجذوة ٣٧٤ والبغية ٥٠٠ ، والمغرب ٢ / ٥٧ ، انها الى صاحب القسطنطينية في بلاد الروم ، ويؤيد ذلك المقري في موضعين من نفح الطيب ١ / ٢٤٦ نقلاً عن مقدمة ابن خلدون ، والموضع الثاني ٢ / ٢٥٨ نقلاً عن المقتبس لابن حيان ، وقد حدد تاريخ سفارته الدكتور الحجي بسنة ٢٢٥ ، وتذكر المصادر أن عودته من بلاد النورمان كانت سنة ٢٢٢ هـ « الاتجاه الاسلامي ٥٨ هامش ١) ، ويبدو أن المطرب لابن دحية (ت ٦٣٣ هـ) ص ١٢٨ هو أقدم من ذكر انها كانت الى بلاد المجوس (الدنمارك) ، وقد نقل المقري في موضع ثالث ٢ / ٢٥٧ عن المطرب خبر هذه السفارة ، وفي قصيدته البائية ، ما يشير الى انها لبلاد المجوس ، ولكن بروفنسال اشار الى ان « تود » هو اختصار لاسم « تيدورا » ملكه الروم ينظر / المجموع ، رقم ٥ وينظر هامش ٢)

(٣) مجموع شعره ق ٢٤

قال لـي يـحـيى ، وصرنا بـيـن موج كالـجـبال
شَـقّـتْ الـقَـلـعـيـن وانـبـت تْ عُرى تـلـكُ الـحـبالِ
وتـمـطّى مـلـكُ الـموتِ إلـيـنا عـن خَـيالِ
فرأيـنا الـموتَ رأى الـ عـيـن حالاً بـعد حالِ
لـم يـكـن لـلـقوم فـيـنا يارفـيـقـي رأسُ مالِ

وتطنب المصادر في الحديث عن سفارته ، وما صادفه فيها من احداث ، بحيث نجد شيئاً من اضطراب في شخصيته من خلال تلك الروايات .

فهو يرفض ـ واعضاء سفارته ـ الركوع للملك ولا تأخذه في التزامه بآداب الشريعة الاسلامية في الله لومة لائم ـ ويخاطب الملك بشجاعة بالغة ، ويحدثه ، كما يحدث زوجته ، بأحاديث عن سير المسلمين ، وأخبارهم ، وبلادهم ، ومن تلك الأشعار قوله[1] :

بَكَرَتْ تُحسّنُ لي سواد خضابي فكأن ذاك أعادني لشبابي
ما الشيبُ عندي والخِضاب لواصفٍ الا كشمسٍ جُلّلت بضَبابِ
تَخفَى قليلاً . ثم يقشعها الصَبا فيصير ما سترت به . لذهابِ
لا تُنكري وَضحَ المشيبِ فإنّما هو زهرةُ الأفـهامِ والألـبابِ

ونلاحظه يرفض شرب الخمرة حين تدعوه الملكة الى ذلك ويشير الى موقفه هذا في ابيات شعرية ولكننا نجد في موقف آخر . شخصيةً تنحرف الى طمع مادي وعدم تقدير للمسؤلية على نحو ما يشخصه الدكتور الاوسي من مظاهر سلوكه[2] .

واما الحدث الثالث فيقع للشاعر بعد عودته من سفارته حيث يرى ان زرياب يتمتع بنفوذ كبيرة عند الامير . فيدخل في خصومة معه . تؤدي بالغزال الى الرحيل عن الاندلس الى الشرق . هناك يلتقي بتلاميذ ابي نواس . ويرى ما هم عليه من تهوين للشعر الاندلس . وشعرائه . حتى اذا دار الحديث عن أبي نواس الشاعر المبجل لديهم . قال لهم من منكم يحفظ قصيدته[3] :

ولما رأيتُ الشَّرب أكدَت سماؤهم تأبطت زقي واحتسبت عنائي

---

(٢) نفسه ق ٦
(١) فصول في الأدب الاندلسي ١٠٣ ـ ١٠٤
(٢) مجموع شعره ق ١

فلما أتيت الحان ناديت ربه فهب خفيف الروح نحو ندائي
قليل هجوع الليل الا تعلةً على وجل مني ومن نظرائي
فقلت : اذقنيها ، فلما أذاقني طرحت اليه ريطتي ورداثي

فأعجبوا بها كثيراً . وذهبوا في مدحها كل مذهب . فلما أفرطوا قال لهم خفضوا عليكم . فأنه لي فأنكروا ذلك . فأنشدهم قصيدته التي مطلعها[1] :

تداركت في شرب النبيذ خطائي وفارقت فيه شيمتي وحيائي

ومن الدارسين المحدثين الدكتور احمد هيكل الذي صنف لنا حياة الشاعروجعلها في ثلاث مراحل[2] :

مرحلة الشباب والنزق وفيها غلب على شعره طابع الخمر والمجون والميل الى الدعابة . ومرحلة الكبر والتعقل وفيها غلب على شعره طابع النقد الاجتماعي والاخلاقي وتعمق روح السخرية والاحساس بالمرارة الى حد التشاؤم . واما المرحلة الثالثة فهي مرحلة الضعف والزهد وتغلب فيها على شعره موضوعات الشكوى من تقدم السن والزهد في الدينا ومتاعها .

والذي نراه ان هذه المراحل مراحل نظرية ليس لدينا من حياة الشاعر ما يؤيدها واما المؤشرات التي نفيدها في أشعار الشاعر ـ من حيث المضمون ـ فهي ليست دليلاً على هذه المراحل . اذ أن اكثر ما يرد من أشعاره يقترن به بعد تجاوز سن الخمسين وأول الأحداث التي مرت بالشاعر ، ما نقلته المصادر عن قبضه الاعشار وتصرفه فيها وسجنه فيما بعد وقصيدته البائية التي صدرت من السجن تشير في مطلعها الى بلوغه الخمسين .. واما احداث سفارته ورحلته الى المشرق اذا صحت .. فكلها حدثت ايضاً بعد السبعين كما تشير الى ذلك اشعاره .

فليست هناك اذن ـ بالمفهوم الدقيق ـ مرحلة شباب ونزق ولا مرحلة كبر وتعقل اما المرحلة الثالثة فلدينا كثير من الشعر في تأييدها

ثانياً : ديوانه وأبرز موضوعاته :

اشتهر يحيى الغزال بالشعر ، وذاع صيته بين أدباء عصره فأصبح أحد كبار الشعراء لا في الاندلس فحسب . بل في الشعر العربي بشكل عام . ومنذ عهد مبكر .

(١) نفسه ق ٢
(٢) الادب الاندلسي ١٦٤ ـ ١٦٦

فلما أتيت الحان ناديت ربه فهب خفيف الروح نحو ندائي
قليل هجوع الليل الا تعلةً على وجل مني ومن نظرائي
فقلت : اذقنيها ، فلما أذاقني طرحت اليه ريطتي ورداثي

فأعجبوا بها كثيراً . وذهبوا في مدحها كل مذهب . فلما أفرطوا قال لهم خفضوا عليكم . فأنه لي فأنكروا ذلك . فأنشدهم قصيدته التي مطلعها[1] :

تداركت في شرب النبيذ خطائي وفارقت فيه شيمتي وحيائي

ومن الدارسين المحدثين الدكتور احمد هيكل الذي صنف لنا حياة الشاعروجعلها في ثلاث مراحل[2] :

مرحلة الشباب والنزق وفيها غلب على شعره طابع الخمر والمجون والميل الى الدعابة . ومرحلة الكبر والتعقل وفيها غلب على شعره طابع النقد الاجتماعي والاخلاقي وتعمق روح السخرية والاحساس بالمرارة الى حد التشاؤم . واما المرحلة الثالثة فهي مرحلة الضعف والزهد وتغلب فيها على شعره موضوعات الشكوى من تقدم السن والزهد في الدينا ومتاعها .

والذي نراه ان هذه المراحل مراحل نظرية ليس لدينا من حياة الشاعر ما يؤيدها واما المؤشرات التي نفيدها في أشعار الشاعر ـ من حيث المضمون ـ فهي ليست دليلاً على هذه المراحل . اذ أن اكثر ما يرد من أشعاره يقترن به بعد تجاوز سن الخمسين وأول الأحداث التي مرت بالشاعر ، ما نقلته المصادر عن قبضه الاعشار وتصرفه فيها وسجنه فيما بعد وقصيدته البائية التي صدرت من السجن تشير في مطلعها الى بلوغه الخمسين .. واما احداث سفارته ورحلته الى المشرق اذا صحت .. فكلها حدثت ايضاً بعد السبعين كما تشير الى ذلك اشعاره .

فليست هناك اذن ـ بالمفهوم الدقيق ـ مرحلة شباب ونزق ولا مرحلة كبر وتعقل اما المرحلة الثالثة فلدينا كثير من الشعر في تأييدها

ثانياً : ديوانه وأبرز موضوعاته :

اشتهر يحيى الغزال بالشعر ، وذاع صيته بين أدباء عصره فأصبح أحد كبار الشعراء لا في الاندلس فحسب . بل في الشعر العربي بشكل عام . ومنذ عهد مبكر .

(١) نفسه ق ٢
(٢) الادب الاندلسي ١٦٤ ـ ١٦٦

التفتوا الى جمع أشعاره ، وقد وصفت بالكثرة ، جمعها حبيب بن احمد الشطجيري[١] ، وقد نهد الدكتور حكمة الأوسي الى جمع أشعاره بعد أن فقد المجموع القديم ، فاجتمع في مجموعه ما يناهز ثلاثمائة[٢] بيت ، واستدرك عليه هلال ناجي عدداً آخر من الأبيات[٣] ، بلغت حوالي خمسين بيتاً .

واذا اردنا أن نقف على موضوعاته الشعرية فيما وصل الينا من اشعاره ، استوقفتنا ظاهرة غريبة ، تتمثل في فقدان اشعار الغزال ، لا سيما تلك التي نظمها في مدح ملوك الامويين ، بعد أن زامن خمسة منهم ، وهو القائل[٤] :

ادركت بالمصر ملوكاً أربعة وخامسا هذا الذي نحن معه

فمن غير المعقول الا ينظم في مدح ملوك عصره ، وهو موضع ثقتهم .. بعد أن تولى مهامّ صيرته في ظلهم .. ومنها سفارتاه الى بلاد النورمان ، وبلاد الروم ... وما بين ايدينا من اشعاره في هذا الباب لا يعدو قصيدته التي يستعطف بها عبد الرحمن بن الحكم الاوسط (٢٠٦ ـ ٢٣٨) ، ولم نجد من أخباره ما يشير الى صلاته بملوك الأندلس الذين أدركهم ومن أبياته في بائيته يقول[٥] :

مَن مبلغٌ عني إمامَ الهُدى الوارثَ المجدِ أباً عن أبِ
وأصبح المشرقُ من شوقه إليك قد حنّ الى المغرب
منبره يهتف من وجده اليك بالسهل وبالمرحب
خفا به الوجد فلو منبر طار لوافى خطفة الكوكب
الى جميل الوجه ذي هيبة ليست لحامي الغابة المغضب
لا يمكن الناظر من رؤيته الا التماح الخائف المذنب

وقد أعجب القدماء بأبياته المتقدمة آنفاً في معنى الهيبة ، ورأى الدكتور بدير متولي حميد أنه كان مجدداً فيها سابقاً البحتري[٦] (ت ٢٨٤ هـ) ، وربما كان الأخير متأثراً به .

---

(١) جذوة المقتبس ٣٧٥ ، البغية ٥٠١ ، كشف الظنون ٨٠٤
(٢) فصول ١٧٢ ـ ١٩٥
(٣) هوامش تراثية ص ١٠١ ـ ١٠٥
(٤) مجموع شعره ق ٢١
(٥) مجموع شعره ق ٤
(٦) قضايا اندلسية ص ٦٤

وفي المقتبس اورد بيتين في بيعة الامير محمد[1]، وهناك نتفتان ، كل واحدة في بيتين في المديح ، غير معروف لمن وجههما .

ويتصدر موضوع الحكمة والزهد موضوعاته الشعرية ، اذ بين ايدينا سبع عشرة قطعة في هذا الموضوع ، وتصوره أشعاره في سني حياته الأخيرة ، يصدر عن حكمة بالغة ، وتجربة محنكة ، وتتقدم قصائده في هذا الباب ، قصيدة طويلة في عشرين بيتاً ، يظهر فيها عزوفه عن اللذات والمتع المحرمة فيقول[2]:

لعَمري ما ملكَّتُ مِقُودي الصَبا ... فأمطو للذاتٍ من السَهل والوعرِ
ولا أنا ممن يؤثر اللهوُ قلبَه ... فأمْسيَ في سكرٍ وأصبحَ في سُكرِ
وباللهِ لو عمّرتُ تسعينَ حِجَةً ... الى مِثلها ما اشتقت فيها الى خمرِ
ولا طربتْ نفسي الى مزهرٍ ولا ... تَحنّنِ قَلبي نحو عودٍ ولا زَمرِ

ثم ينتهي الى ضرورة استثمار هذه الدنيا بصالح الأعمال فيقول:

فهل لك في الدنيا سوى السّاعة التي ... تكونُ بها السَّراء أو حاضر الضَّر
فما ساقَ منها لا يمسّ ولا يرى ... وما لم يكنْ منها . عميٌ عن الفكرِ
فطوبى لعبد أخرج الله روحه ... اليه . من الدنيا . على عمل البرِ

ويبدو أن الشاعر بقي يضرب اكبادَ الأرض . فصوّر لنا غربته التي فرقته عن الأحباب والخلان في أسلوب حوار مع انسانة قريبة منه . ربما كانت زوجة او ابنة تخشى عليه العطب في رحلته يقول[3]:

وكم ظاعنٍ قد ظن أن ليس آيبا ... فآبَ وأودَى حاضرون كثيرُ
رأيتُ المنايا يدركُ العُصَم عَدوُها ... فينُزِلها والطير منه تطيرُ
وعلى أمضي ثم أرجع سالما ... ويهلك بعدي آمنونَ حضورُ
وكيف أبالي والزمان قد انقضى ... وعظمي مَهيضٌ والمكانُ شطيرُ
وقد يهرُب الانسان من خيفه الردى ... فيدركه ما خاف حيث يسير

---

(١) المقتبس ١٣٤

(٢) مجموع شعره ق ١٥ و ٢١

(٣) المجموع ق ٢٩ ، ق ٣٠ والراجح ان القطعتين في أصلهما قصيدة واحدة .

ومن أبياته الحكمية قوله[1]:

من ظنّ أن الدهرَ ليس يُصيبه ... بالحادثات. فإنه مغرورُ
فالقَ الزمانَ. مهوناً لخطوبه ... وانجرّ حيثُ يجركَ المقدورُ
واذا تقلبت الأمورُ ولم تَدمْ ... فسواءٌ المحزونُ والمسرورُ

وفي اخريات حياته وبلوغه أرذل العمر. يدعو الناس الى أخذ الموعظة مما أدركه. والحال الذي بلغه[2]،

تسألني عن حالتي أم عَمرْ
وهي تَرى ما حلّ بي من العبرْ
اربَدّ منّي الوجهُ وابيض الشعْر
وصارَ رأسي شهرةً من الشَهرْ
فانظرْ الي واعتبرْ ثم آعتبرْ
فانّ للحليم في معتبرْ

ويحذر الغزال من صولة الزمن لان السلطان لا يدوم وبشاشته سرعان ما تنصرم[3]:

. وإن أعطيت سلطاناً ... فحاذرْ صولةَ الزمنِ
أخو السلطان موصوفٌ ... بحسنِ الرّأي والفطنِ
كأنّ بشاشة السلطا ... ن حين تزول لم تكن

وثاني موضوعاته الشعرية الذي انتظم ما وصل الينا من شعره. هو نقد المجتمع من نواحٍ متعددة. وصور مختلفة. يكشف عن عيوبه المستشرية. ويوجه سهامه. لهؤلاء الذين انحرفوا عن جادة الصواب. بأسلوب المبالغة. ويتوقف عند بعض تلك الآفات. ليعالج الرياء. عند من يُظهرُ صلاحاً ونقاءاً. وتأتي معالجته سافرة متهكمة. في قوله:

اذا أخبرتَ عن رجلٍ بَريء ... من الآفاتِ ظاهره صَحيحُ
فسلْهم عنه هل هو آدمي ... فإنْ قالوا نعم. فالقول ريحُ
ولكن بعضنا أهل أستتار ... وعند الله أجمعنا جريحُ
ومن إنعام خالقنا علينا ... بأن ذنوبنا ليستْ تفوح

---

(١) ق ١٧ (٢) ق ٢٠ (٢) ق ٥٠

فلو فاحت لاصبحنا هروباً فرادى بالفلا ما نستريح

وقد لمح الدكتور بدير متولي حميد . تأثر هذه الأبيات بأبيات لأبي العتاهية (ت ٢١١) التي يقول فيها :[١]

أخانك الطرف الطموح ايها القلب الجموح
أحسن الله بنا ان الخطايا لا تفوح

وله أبيات بائية يختصها بمراء يظهر للناس بصمت . وقطوب . وخشوع . يحاوره فيقول :[٢]

قلت : هل تألمُ شيئاً ؟ قال : أثقالُ الذنوبِ
قلت : لا تُعنَ بشيء . أنتَ في قالبِ ذيبِ

وفي أبيات بائية أخرى يغلي مِرجله . ويسوء ظنه . في الناس فيتهمهم بالحيلة . والغدر . والانتقام . حين يحدثنا فيقول :[٣]

لا . ومن أعملَ المطايا اليه كلُّ من يرتَجى اليهِ نَصيبا
ما أرى هَهنا من النَّاسِ الا ثَعلباً يطلبُ الدَجاج وذَيبا
أو شبيهاً بالقِط ألقى بعينيهِ إلى فارةٍ يريدُ الوُثوبا

وفي قصيدة أخرى يرى أن الأعمال هي مقياس الرجولة . ويؤكد ضرورة انشغال كل بعيبه عن الآخرين . ويهَول من آفة اللسان[٤] .

الناس خلقٌ واحد متشابه لكنما تتخالف الأعمالُ
ولكلّ انسانٍ بما في نفسه من عيبه من غيره إشغالُ
ورأيتُ ألسنةَ الرِّجال أفاعيا طوراً تثور وتارة تغتالُ

ولا يغادر شاعرنا بؤر الفساد . حتى يلمز أساليب الكسب . غير المشروعة . فيقول في سخرية شديدة :[٥]

إن الحلال وحده لا يختمرْ اين ترى مالاً حلالاً قد ثمر ؟
ما إن رأينا صافياً منه كثر

---

(١) قضايا اندلسية ٥١ وينظر : ابو العتاهية أشعاره وأخباره تحقيق د . شكري فيصل ٩٧ .
(٢) ق ٩ (٣) ق ٨ (٤) ق ٣٦ (٥) ق ٢٧

ولذلك يدعو الى الزهد والقناعة في الحياة ، ويسخر من قيم الناس ، حين يفرقون بين بني الانسان ، حياً وميتاً ، فأن محاولتهم آيلة الى الفشل والبوار ، لأن العبرة بما في قعر القبر لا بمظهره :[١]

أرى أهل اليسار اذا توفوا ... بنوا تلك المقابَر بالصخور
أبوا الا مباهاةً وفخراً ... على الفقراء حتى في القبورِ
ألماً يبصروا ما خرّبته الد ... هورُ من المدائن والقصورِ ؟
لعمرُ أبيهم لو أبصروهم ... لما عُرفَ الغنيَ من الفقيرِ
ولا عرفوا العبيد من الموالي ... ولا عرفوا الاناثَ من الذكورِ
اذا أكل الثرى هذا وهذا ... فما فضل الكبير على الحقير ؟

وتواجهنا قصائد كثيرة في هذا الاتجاه . تصور لنا تجربته مع المرأة ، وتتلخص هذه التجربة في مشكلة قديمة جديدة . تتمثل في التفاوت بين عمر الرجل والمرأة . يسوقها مرة في صيغة حوار بين أب وابنته . يخيرها في الزواج بأحد رجلين . شيخ غني ، وفتى فقير ، فتختار ثانيهما :[٢]

وخَيرّها أبوها بين شيخ ... كثيرِ المالِ أو حدثٍ فَقيرِ
فقالت : خطتا خسف ، وما ان ... أرى من حظوة للمستخيرِ
ولكن إن عزمتَ فكل شيء ... أحبَ اليَ من وجه الكبيرِ
لأن المرءَ بعدَ الفقر يثري ... وهذا لا يعود الى صغير

وترد ثانية في صورة أمرأة تبادله الحب فيسيء الظن بها :[٣]

قالتْ : أحبك قلت : كاذبة ... غري بذا من ليس ينتقد
هذا كلامُ لستُ أقبله ... الشيخ ليس يحبه أحد

ويتكرر الموضوع ثالثة في أبيات نونية :[٤]

إن الفتاة وإن بدا لكَ حبها ... فبقلبها داءٌ عليك دفين
واذا ادعين هوى الكبير فإنما ... هو للكبير خديعةٌ وقرون

وفي الغالب ان الشاعر عاش أبعاد هذه التجربة . وأن أبياته مما نظم في شيخوخته التي ثقلت عليه . فكان يعاني من متاعب كثيرة . فهو لذلك لا يثق بودّ المرأة ، ويتهمها بالتضليل والخداع :[٥]

(١) ق ١٦ (٢) ٢٤ (٢) ق ١٤ (٤) ق ٤٥ (٥) ق ٢٥

يا راجياً ودّ الغواني ضلةً ففؤادُه ـ كلفاً بهنّ موكّلُ
لا تكلفنّ بوصلهنّ فإنما الـ كلفُ المحبّ لهنّ من لا يعقلُ

وأما الموضوع الثالث الذي اسلس الشاعر له قياده فهو الغزل والمجون . وما بين أيدينا من شعره . لا يعدو عشر قصائد . وأشهرها همزيته . التي تقترن برواية رحلته الى المشرق . ونشك في تلك الرحلة . ونُرجح أن القصيدة نظمت بقصد اظهار الباع . وابداء البراعة . في النظم . وجاء الرواة . فأوحت مخيلتهم الخصبة قصة رحيله الى المشرق . والقصة مما ينسجم مع الاتجاه العام للأندلسيين والروح المسيطرة عليهم في معارضة المشارقة واظهار التفوق عليهم :

وفي الغزل الماجن له قصيدتان متقاربتان في الطول مطلع الاولى :[1]

لم أنس اذ برزت الى لعوب طرباً وحيث قميصها مقلوب

ومطلع الثانية :[2]

كتبت وشوق لا يفارق مهجتي ووجدي بكم مستحكم وتذكري

وهي أكثر وقاراً من الأولى وأعف في معانيها . يبدؤها بالشوق الى قرطبة لأنه اودع فيها أهل وده . وذكرياته العبقة . وهي مشوبة بالأسى والأسف . على ما تصرم من تلك الأيام ثم يختمها بالبكاء . والسلام الكثير . فيقول :

الا يا نسيم الريح بلّغ سلامنا وصف كلّما يلقى الغَريبُ وخَبرَ
وقل لشعاع الشمس بلغ تحيتي سميك وأقرأها على آل جعفرِ

وفي قصيدة ثالثة . يحدثنا عن شوقه . ويبث لواعج حبه . في نقاء وعفاف ويضمنها اشواقه . ووجده بعد أن شتت الدهر شمله . وخَاس الزّمان به . حتى انتهت تلك الوشائج الروحية الى صورة من الغدر والجفاء :[3]

أقرَ السّلام على إلف كَلِفتُ به قد رُمت صبراً وطولُ الشوق لم يَرِمِ
كنا كروحين في جسم غِذاؤهما ماءُ المحبةِ من هامٍ ومنسجمِ
ففرّق الدّهر شملًا كان ملتئما منا وجمع شملًا غير ملتئمِ
اشكو الى الله ما القي بفرقته شكوى محب سقيم حافظ الذممِ
لو كنت أشكو الى صم الهضاب إذن تفطرت للذي أبديه من ألمِ

(١) ق ٧ (٢) ق ٢٦ (٣) ق ٤١

ومن قصائده ما جاء مخالفاً للبناء المألوف للقصيدة العربية . اذ يستهل قصيدته بوصف رحلة البحر ثم ينتقل الى الغزل بسليم[١]

ومن قصائده المتميزة في هذا الباب ما جاء مقترناً بذكر الملكة تيودورا في قصيدتين بائيتين ومطلع الاولى[٢]

كلفت يا قلبي هوى متعبا غالبت منه الضيغم الأغلبا

ومطلع الثانية :[٣]

بكرت تحسن لي سواد خضابي فكأن ذاك اعادني لشبابي

والقصيدتان تدوران في اتجاه واحد . تمثلان شخصية الغزال الظريفة . وحسن تعليله . وواقعية نظرته الى الشيب . الذي حاول أن يخفيه بالخضاب :[٤]

تلك ابرز الموضوعات التي دارت عليها اشعاره . وفي مجموعه الشعري مقطعات آخريات . تندرج في هجاء بعض الشخصيات التي عاصرته . منها ما جاء في هجاء زرياب المغنى . ونصر . والقاضي يخامر . واخوه معاذ .

ثالثاً : سماته الفنية :

وقفنا عند حياة الشاعر . وابرز الاحداث التي انعكست على شعره . وتأملنا في موضوعاته الشعرية التي كانت مرآة صادقة لنفسه الطروب . كما يرى عبد الله كنون[٥] وقد أثنى على شاعريته أكثر الباحثين فرأى الرافعي أنه من شعراء الأندلس كأمريء القيس من شعراء الجاهلية . وبشار من شعراء المحدثين[٦] . ووجد احسان عباس أنه شاعر الأندلس المقدم على جميع شعراء عصره[٧] .

وسنتوقف عند أبرز السمات الفنية التي امتازت بها شاعريته . أما غرسيه غومس فيرى أن السّر في امتياز الغزال لا يعود الى براعته في الشعر بقدر ما هو بسبب حياته الخاصة الطريفة التي كان يحياها .[٨]

---

(١) ق ٢٤ (٢) ق ٥ (٣) ق ٦ (٤) وتنظر قصيدته رقم ٣٧ (٥) الشعر الأندلسي بحثه في مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق ص ٢٢٢ ـ ٢٣١ / ٣ / ١٩٥٦ . (٦) تأريخ اداب العرب ٣ / ٢٦٣ (٧) تأريخ الأدب الأندلسي ١ / ١٦٥ (٨) الشعر الاندلسي ص ٣١

ويتفق الباحثون على أن من ابرز خصائصه الفنية ميله الى القصص الشعري ، من أبرز الظواهر الأدبية في الشعر العربي ،[١] وفي ديوانه أمثلة كثيرة لهذا الاتجاه ويضيف الدكتور هيكل الى هذه الخصيصة ، سمة التحليل والتعليل .

ويرون أن من خصائصه الفنية ، نزوعه الى روح السخرية والنقد ، في اشعاره ونظراته متهكمه فيها ، وتتمثل هذه السمة في قصائده التي نقد فيها المجتمع في مظاهره السلبية الكثيرة ، وفي موقفه من المرأة ، وكنا عرضنا لنماذج من اشعاره فيها ،[٢] وهو موقف كان يؤرق الشاعر ويصوره بالوان مختلفة كما يبدو في ابياته الرائية .[٣]

ومن الخصائص التي التفت اليها الدكتور احسان عباس ، وضوح نظراته الفلسفية القائمة على تجربته ، وهذه السمة الى جانب السمة التي تقدمت آنفاً ، خاصيتان عزيزتان في الشعر الاندلسي ،[٤] ونظرته الفلسفية كانت على صورة التشاؤم والشك فيمن حوله من ابناء المجتمع ، على نحو ما رأينا في ابياته البائية التي تقدمت ،[٥] ونلاحظ ـ في عدد من قصائده ـ ان نظرته الى المرأة كانت سلبية كذلك .[٦]

وتأخذ اشعاره الفلسفية بعداً عميقاً ، حين يحدثنا عن تجربة حياته الطويلة ، ويصور لنا نظرته الى الانسان بين الحياة والموت ، ويسخر من تقديس الناس للمفاهيم المادية ، على نحو ما رأينا في أبياته الرائية التي مطلعها :[٧]

أرى أهل اليسار اذا توفوا بنوا تلك المقابر بالصخور

ومن الخصائص الفنية التي استوقفت الدكتور احمد هيكل ، الصور الفنية المبتكرة التي تضمنتها أشعاره من مثل قوله في قصيدته التي يسوق فيها حواراً بين المرأة والشيخ[٨] .

سيان قولك ذا وقولك أن الريح نعقدها فتنعقد
او ان تقولي النار باردة أو أن تقولي الماء يتقد

والصور المبتكرة واضحة في البيتين ولعله سابق فيها .

وفي دراسة متأنية للدكتور حكمة الاوسي تحدث فيها عن الشاعر وخصائصه الفنية . وخلص الى القول الى أن ابرز ما يتصف به شعر الغزال ، هو واقعيته

---

(١) الادب الاندلسي ١٦٧ ، تأريخ الادب الاندلسي ١ / ١٦٥
(٢) (٣) ق ١٤ ، ٢٤ (٤) تاريخ الادب الاندلسي ١ / ١٦٦ (٥) ق ٨ (٦) ق ٢٥ (٧) ق ١٦ وينظر المقتبس ط القاهرة (٨) ق ١٤

التعبيرية . أي انه لا يلجأ الى الاتجاه السائد لدى الشعراء باستخدام حسن التعليل في ابياته . وقد رأينا الشاعر يستخدم هذا الأسلوب في بعض قصائده . ومنها جوابه على الملكة (تيودورا) في قصيدته البائية[1] التي منها :[2]

قالت . ارى فوديه قد نورا ... دعابة توجب أن أدعبا
قلت يا بأبي انه ... قد ينتج المهر كذا اشهبا

ابن عبد ربه
(٢٤٦ ـ ٣٢٨ هـ)

اولاً : حياته ومكانته :

هو احمد بن محمد ابن عبد ربه[3]. يكنى أبا عمر . كان أبرز أدباء عصره . ولد سنة ٢٤٦ هـ ونشأ في قرطبة نشأة علمية . متصلاً بعلماء عصره . وكان ابرز الذين تلمذ عليهم ابن وضاح . وبقي بن مخلد . والخُشني[4] . اتصل بأمراء عصره .الامير محمد بن عبدالله الاوسط وابنيه المنذر وعبدالله وله فيهم مدائح شعرية كثيرة . كذلك وصلت الينا مدائحه في بعض قواد عصره . أمثال عبدالله بن محمد ابن ابي عبدة . وابراهيم بن حجاج . كذلك مدح الكاتب عبدالله بن محمد الزجالي . وتوفي بعد أن أصيب بمرض الفالج سنة ٣٢٨ هـ وتلوح لنا ثقافة الشاعر بشكل واضح في كتابه العقد الفريد الذي جاء على نحو موسوعي . ملماً بثقافة عصره الماماً واسعاً . كذلك تتجلى هذه الثقافة للدارس في ما وصل الينا من أشعاره . لا سيما في الباب الذي عقده للأمثال[5].

---

(١) فصول الادب الاندلسي ٩٩

(٢) ق ٥ .

(٣) ينظر في ترجمته : تاريخ علماء الاندلس رقم ١١٨ ، جذوة المقتبس رقم ١٧٢ ، المطمح ٢٧٠ بغية الملتمس رقم ٢٢٧ ، وفيات الاعيان رقم ٤٥ رآيات المبرزين رقم ٦٤ .

(٤) يراجع فصول في الادب الاندلسي ٤٦ (وقد وردت اشارة في العقد الفريد الى رحلة قام بها الى بلاد المشرق . العقد ٢ / ٢٨٠ ، ظهر الاسلام ٢ / ٨٥

(٥) العقد الفريد ٢ / ١٣٧

كتب بخط تخصص

التعبيرية . أي انه لا يلجأ الى الاتجاه السائد لدى الشعراء باستخدام حسن التعليل في ابياته . وقد رأينا الشاعر يستخدم هذا الأسلوب في بعض قصائده . ومنها جوابه على الملكة (تيودورا) في قصيدته البائية[1] التي منها :[2]

قالت . ارى فوديه قد نورا ... دعابة توجب أن أدعبا
قلت يا بأبي انه ... قد ينتج المهر كذا اشهبا

ابن عبد ربه
(٢٤٦ ـ ٣٢٨ هـ)

اولاً : حياته ومكانته :

هو احمد بن محمد ابن عبد ربه[3]. يكنى أبا عمر . كان أبرز أدباء عصره . ولد سنة ٢٤٦ هـ ونشأ في قرطبة نشأة علمية . متصلاً بعلماء عصره . وكان ابرز الذين تلمذ عليهم ابن وضاح . وبقي بن مخلد . والخُشني[4] . اتصل بأمراء عصره .الامير محمد بن عبدالله الاوسط وابنيه المنذر وعبدالله وله فيهم مدائح شعرية كثيرة . كذلك وصلت الينا مدائحه في بعض قواد عصره . أمثال عبدالله بن محمد ابن ابي عبدة . وابراهيم بن حجاج . كذلك مدح الكاتب عبدالله بن محمد الزجالي . وتوفي بعد أن أصيب بمرض الفالج سنة ٣٢٨ هـ وتلوح لنا ثقافة الشاعر بشكل واضح في كتابه العقد الفريد الذي جاء على نحو موسوعي . ملماً بثقافة عصره الماماً واسعاً . كذلك تتجلى هذه الثقافة للدارس في ما وصل الينا من أشعاره . لا سيما في الباب الذي عقده للأمثال[5].

---

(١) فصول الادب الاندلسي ٩٩

(٢) ق ٥ .

(٣) ينظر في ترجمته : تاريخ علماء الاندلس رقم ١١٨ ، جذوة المقتبس رقم ١٧٢ ، المطمح ٢٧٠ بغية الملتمس رقم ٢٢٧ ، وفيات الاعيان رقم ٤٥ رآيات المبرزين رقم ٦٤ .

(٤) يراجع فصول في الادب الاندلسي ٤٦ (وقد وردت اشارة في العقد الفريد الى رحلة قام بها الى بلاد المشرق . العقد ٢ / ٢٨٠ ، ظهر الاسلام ٢ / ٨٥

(٥) العقد الفريد ٢ / ١٣٧

كتب بخط تخصص

لقب بألقاب منها : شاعر الاندلس[١] ، ومليح الأندلس[٢] ويقال أن المتنبي وصفه بأنه أشعر القوم[٣]. اما ابن شرف القيرواني (ت ٤٦٠ هـ) فقد أثنى على أشعاره في مرحلتي الشباب والشيخوخة وقال « وهو في كل ذلك فارس ممارس ، وطاعن مداعس[٤]. ووصفه ابن حيان (ت ٤٦٩ هـ) : (زعيمهم وسابق حليتهم ، الفحل الخنذيذ ، والصانع المجيد »[٥] وباهى به مواطنه الشقندي (ت ٦٢٩ هـ) في رسالته التي نوّه فيها بفضائل الأندلس .[٦]

ثانياً : ديوانه وموضوعاته الشعرية

اعتُنى بديوان ابن عبد ربه في عهد مبكر . حيث رأى نسخة منه ابو عبدالله الحميدي صاحب جذوة المقتبس في نيف وعشرين جزءاً . من جملة ما جمع للحكم المستنصر . وبعضها بخط الحكم نفسه[٧]. الذي عرف عنه هواه بجمع الكتب . وهو حجة عند أهل العلم . وقد فقد ديوانه مع ما فقد من مصادر الأندلس الشعرية . وتجددت الحاجة الى جمع ديوانه . فنهض لها ثلاثة باحثين في سنوات متفاوتة . وكانت أول المحاولات للدكتور موسى رزق ريحان بعنوان « شعر ابن عبد ربه جمعاً وتحقيقاً ودراسة »[٨].

واما المحاولة الثانية فقد قام بها الاستاذ محمد بن تاويت بعنوان « شعر ابن عبد ربه »[٩] وجاءت المحاولة الثالثة على يد الدكتور محمد رضوان الداية بعنوان « ديوان ابن عبد ربه[١٠] ».

---

(١) الجذوة ١٠٣

(٢) معجم الادباء ٤ / ٢٢٢

(٣) قضايا اندلسية ص ٦٥

(٤) الذخيرة ٤ / ١ / ٢١٠

(٥) المقتبس ٤١ (ط باريس)

(٦) النفح ٢ / ١٩٢

(٧) جذوة المقتبس ص ١٠١

(٨) وهي رسالة ماجستير مطبوعة على الالة الكاتبة ، جامعة القاهرة ١٩٧١

(٩) صدر ضمن مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر ـ الدار البيضاء ١٩٧٨ ، في مائة وصفحتين اورد فيه ٢٥٧ مقطوعة وقصيدة في ١٢٥٣ .

(١٠) سلسلة دراسات اندلسية (١٠) مؤسسة الرسالة) ١٩٧٩ في ٢٤٧ صفحة ، الحق به فهارس للقوافي والاعلام والمصادر وقد اجتمع فيه ٢٩٢ قطعة في (١٢٩٣) بيتاً بضمنها الارجوزتان في تاريخ الناصر وفي العروض .

ولعل أنضج هذه المحاولات هي المحاولة الأولى وإن كانت غير متيسرة بين أيدي الباحثين اذ لما يزل في حكم المخطوطات ... وأما المحاولتان الأخريان فقد أتسمتا بالسرعة وعدم الأناة لافتقاد الجمعين الى شروط التحقيق العلمي في هذا المجال . وجهد الدكتور الداية في جمع أشعار الشاعر واتباعه المنهج العلمي كان أفضل من زميله محمد بن تاويت وعلى الرغم من أناقة الطبعة فأن القصائد جاءت غير مرقمة وكذلك الأبيات . كما أنه لم يطرد ذكر مناسبة الأبيات . ومجموع ما ورد من تلك الأشعار جاء في حوالي ثلاثمائة قطعة وقصيدة شعرية تضمنت ما يقارب الفاً وثلاثمائة بيت تضاف الى ذلك أرجوزته في مغازي عبد الرحمن الناصر وهي في (٤٤١) بيتاً وأرجوزته الأخرى في العروض في ١٩٢ بيتاً[١] .

لم تختلف موضوعات الشاعر عن موضوعات الشعر الأندلسي التي نظم فيها شعراء عصره فقد تصدر المديح تلك الموضوعات . وهو موضوع تشابكت فيه موضوعات أخرى . منها وصف المعارك والغزوات الاسلامية . التي اشترك فيها امراء الأندلس أنفسهم . وفيها صور المقارعة والجلاد . والحرب والجهاد . وفيها حلاوة النَّصْر . وبشاشة القيم الايمانية التي علت راياتها وسمقت . بالهمم القعساء ..

وأولى مدائحه تقترن بالأمير محمد (٢٣٨ ـ ٢٧٣) . وما وصل منه نزر يسير . اذ كان الشاعر في عقده الثالث ومن هذا النزر . ما جاء في الديوان نقلاً عن ابن حيان في مقتبسه . قصيدة في وصف منية كنتش وهي في ثمانية عشر بيتاً أولها[٢] :

ألمَا على قصر الخليفة فانظرا ... الى مُنية زهراء شيدت لأزهرا
مزوقة تستودغ النجم سرَّها ... فَتحسبه يصغي اليها لتُخبرا

ويسترسل في وصف المنية حتى يأتي على آخرها ليقول :

تفكَّهْ أمينَ الله وابنَ أمينه ... بجنةِ دُنيا رائحاً ومبكراً
إمامَ الهدى لازلت في ظل حَبْرَةٍ ... ولازلتُ أكسوك الثَّناء المحبَّرا

وله في ولده المنذر بن محمد (٢٧٣ ـ ٢٧٥) من قصيدة طويلة قوله[٢] :

بالمنذر بن محمد ... شرفتْ بلادُ الأندلسْ
فالطَّير فيها ساكنٌ ... والوحشُ فيها قد أنسْ

---

(١) تضمن مجموع الاستاذ محمد بن تاويت ، (١٢٥) بيتاً .
(٢) ديوانه ص ٦٨ (٢) الديوان ص ٩٤

وقوله في مدح خلفه عبدالله بن محمد (٢٧٥ ـ ٣٠٠)[١] :

خلافة عبدالله حجّ عن الورى ... فلا رَفَثٌ في عصره وفسوقُ
تجلت دياجي الحيف عن نور عدله ... كما ذُرَ في جُنح الظلام شروقُ
وثقّفَ سهمَ الدين بالعَدل والتقى ... فهذا له نصل وذلك فوْقُ

والأبيات من قصيدة طويلة جاءت في الديوان في حوالي ثلاثين بيتاً يستهلها بالغزل فيقول :

أرقت وقلبي عنك ليس يَفيق ... وأسعدت أعْدائي وأنت صديق

وله فيه قصائد أخرى[٢] ..

وقد أمضى حوالي ربع قرن من سني حياته الاخيرة في خلافة الناصر . وله فيه مدائح كثيرة منها ما قاله في بيعته[٣] :

يامن عليه رداءُ البأسِ والجود ... من جود كفّك يَجرى الماءُ في العودِ
وبادَرَتْ نحوَك الابصارُ واكتحلتْ ... بحسن يوسفَ في محراب داود

وله فيه قصائد اخرى كثيرة يؤرخ فيها لغزواته في الأندلس[٤]. ومنها ما ساقه في أول غزوة غزاها وهي المعروفة بغزاة المنتلون سنة ٣٠٠ هـ افتتح بها سبعين حصناً ومطلعها[٥] :

قد أوضح الله للاسلام منهاجا ... والناس قد دخلوا في الدين افواجا
وقد تزينت الدنيا لساكنها ... كأنما ألبست وشياً وديباجا
ماتَ النفاقُ وأعطى الكفرُ ذمّته ... وذلتْ الخيلُ إلجاماً وإسراجا
وأصبحَ النصرُ معقوداً بألوية ... تطوى المراحل تهجيراً وإدلاجا
ادخلتَ في قبة الإسلام مارقةً ... أخرجتَها من ديار الشرك إخراجا
في نصف شهرٍ تركت الارض ساكنة ... من بعد ما كان منها الظهر قد ماجا
تملّا بك الأرض عدلاً مثلما امْلِئت ... جوراً وتُوضحُ للمعروف مِنهاجا

---

(١) الديوان ص ١١٤
(٢) الديوان ص ٤٢
(٣) الديوان ص ٥٤
(٤) الديوان ٢٨ ، ٤٥ ، ٥٤ ، ٦٤ ، ١٢٧
(٥) الديوان ص ٢٥

وواضح في مدائحه لأمراء الأندلس مزجه بين المديح ووَصف معارك الجهاد التي كانت قائمة على قدم وساق . وكانت أبرز سمة مقرونة بالأمراء . وقد أرخ لنا غزوات ممدوحه الأثير . في أرجوزة أشرنا اليها آنفاً . منذ توليه الحكم سنة ٣٠٠ حتى سنة ٣٢٢ هـ . وللشاعر مدائح في اشهر قواد عصره . ممن أشرنا اليهم آنفاً[١] .

والموضوع الثاني الذي يلي المديح هو الغزل . اذ يتضمن الديوان قصائد عديدة في هذا الباب . ويبدو انها كانت على درجة عالية في البلاغة والبراعة . على نحو ما يروي ياقوت الحموي من أن ابا الطيب المتنبي لقي أبا الوليد بن عسال الأندلسي في مسجد عمرو بن العاص فأستنشده لمليح الاندلس (ابن عبد ربه) فانشد يقول :

يالؤلؤاً يسبي العقول انيقاً	ورشا بتقطيع القلوب رفيقاً
ما إن رأيت ولا سمعت بمثله	درأ يعود من الحياء عقيقا !
واذا نظرت الى محاسن وجهه	أبصرتَ وجهك في سناه غريقاً
يامن تقَطع خصره من رقّةٍ	ما بال قلبك لا يكون رقيقاً ؟ !

فلما أكمل ابن عسال انشاده . استعاده المتنبي ثم صفق بيديه وقال :

(ياابن عبد ربه . لقد يأتيك العراق حبواً)[٢] . وهي شهادة يعتز بها الاندلسيون لشاعرهم. وقد يختلف النقد الحديث في أعجاب المتنبي بالأبيات . لكن حكمه النقدي يمثل ذوق العصر آنذاك . والبراعة الفنية تكمن في لغة الشاعر وأسلوبه . على نحو ما عبّر عنها الدكتور بدير حميد بقوله : « ولا نرى في هذا الشعر جديداً في الموضوع ولا في المعاني الجزئية . لانها كلها مما طرق المشارقة . ولكننا نجد حلاوة في اللفظ وسهولة . كما نجد افتناناً وبراعة في الصياغة »[٣]

وهي قصائد لم تصدر عن تجربة فعلية على نحو ما تشير الى ذلك حياته التي نشأ عليها . بل انطوت على نزعة تقليدية لشعراء الغزل . وليس معنى ذلك أنها أفتقدت عنصر صدق التجربة الشعورية . فقد ضمها الدكتور بدير متولي حميد في باب الغزل الذي بعثت عليه القوة الفنية . في الشعر[٤] . واكثر تلك القصائد تَرِدْ في العقد الفريد . في باب شواهده على الأوزان الشعرية يذيل كل قطعة ببيت شعري لشاعر

---

(١) ينظر ديوانه ٩٢ ، ١٥٤ كذلك ٥٥ كذلك ٨٩

(٢) معجم الانفس معجم الادباء ٤ / ٢٢٢ ، ديوانه ١٢٠

(٣) قضايا اندلسية ٦٥

(٤) نفسه ٢٢١

مشهور وقد انتظم منها ثلاث وستون قطعة كل واحدة تتراوح بين أربعة وستة أبيات واليك هذه القطعة[1] :

زادنـــــي لومـــــك اصرارا ... إنّ لي في الحب انصارا
طار قلبي من هوى رشأ ... لو دنا للقلب ما طارا
انضجت نار الهوى كبدي ... ودموعـي تُـطـفىء الـنار
« ربّ نارٍ بـتُّ أرمـقـها ... تـقـضـم الـهـندى والـغارا »

ومن أبياته المشهورة في هذا الباب قوله يصف ساعة الفراق[2] :

ودّعـتـنـي بزفرة واعـتـناق ... ثم نادت متى يكون التلاقي
وتصدت فأشرق الصبح منها ... بين تلك الجيوب والأطواق
ياسقيم الجفون من غير سقم ... بين عينيك مصرع العشاق
ان يوم الفراق افظع يومٍ ... ليتني مت قبل يوم الفراق !

ومما يلاحظ في قصائده الغزلية انها في غالبها تأتي على صورة مقطعات شعرية وانه يختمها في العادة ببيت شعري من قصيدة مشهورة[3] . فهل كان الشاعر يحتذى قصائد عربية ذائعة . ام كان معارضاً ؟ ام انه ذهب مذهب من يضّمن في ابياته ابياتاً من الشعر العربي ؟ اما الاحتمال الاول فلا واما ان يكون معارضاً . فتلك نزعة شهدنا ابعادها في مواطن كثيرة من شعره . وقد لا تخلو المعارضة من فن التضمين .

ويؤلف شعر الآداب والأخلاق الاسلامية موضوعاً ثالثاً في أشعار الشاعر وتأتي هذه القصائد في سياق باب الامثال في عقده[4] :

والحر لا يكتفي من نيل مكرمة ... حتى يروم التي من دونها العطبُ
يسعى به أمل من دونه أجل ... إن كفّه رهبٌ يستَدعِه رغب
لذاك ما سأل موسى ربّه « أرني ... انظر اليك »[5] وفي تسآله عجب
يبغي التزيد فيما نال من كرمٍ ... وهو النجي لديه الوحي والكتب

---

(١) العقد الفريد ٥ / ٤٤٧ والبيت الاخير لعدي بن زيد العبادي (العقد ٥ / ٤٤٧ هـ ٢) والاصل في عروض البيت الاول « أضراراً » والصواب ما أثبتناه

(٢) الديوان ١٢٢

(٣) العقد الفريد ٥ / ٤٤٣ ـ ٤٧٧

(٤) ديوانه ٢٣

(٥) اقتباس من قوله تعالى الاعراف ١٤٣

وقوله في معنى فساد الاخوان[1]:

أبا صالح اين الكرام بأسرهم ... أفدني كريماً فالكريم رضاءُ
عذيريَ من خلق تخلق منهم ... غـــباء ولؤم فاضـــح وجـــفاءُ
حجارة بخلٍ ما تجودُ وربّما ... تفجّر من صُمّ الحجارة ماءُ
ولو ان موسى جاء يضرب بالعصا ... لما انبجست من ضربه البخلاء

وله أبيات ينكر فيها التسويف وخلف الوعد ويجنح فيها الى نقد المجتمع لاستشراء الخصال السيئة فيه[2]

وقوله في مكارم الاخلاق وقد ذكر قبل أبياته قولاً منسوباً للحكماء: « الايام مزارع فما زرعت فيه حصدته »[3].

يامـــن تَـــجـــلّدْ لـــلزمان ... أمَا زمانَـــك مـــنـــك أجـــلد
ســـلّـــط نـــهاك على هوا ... كَ وعد يومك ليسَ من غدِ
ان الـــحـــــياة مزارع ... فازرع بها ما شئت تحصد
والـــناس لا يـــبـــقى سوى ... آثارهـــم والـــعـــيـــن تـــفـــقد

وله أبيات في هذا المجال في ادب عيادة المريض[4]

والموضوع الذي يتصل بشعر الآداب الأسلامية. ويأخذ حجماً واسعاً من الديوان. هو شعر الزهد الذي وصلت الينا منه قصائد كثيرة ذهب في بعضها شاعرنا مذهباً جديداً اطلق عليه تسمية (الممحصات) وهي قصائد يعارض فيها قصائد تقدمت في حياته الاولى يلتزم الوزن والقافية وحركة الروي ولكنه ينقض نزعته المتساهلة في باب الغزل ويشير اشارة صريحة الى تلك القصائدوالصلة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي واضحة. يقال محص الذهب بالنار. اذا أخلصه مما يشوبه حيث يضمن قصيدته الثانية شطر بيت من قصيدته الاولى وجل ما وصل الينا من هذه القصائد لا تتجاوز ابياتها خمسين بيتاً. ومن ممحصاته قوله[5]:

يا عاجزاً ليس يعفو حين يقتدر ... ولا يقضّى له من عيشه وطر

---

(١) ديوانه ١٥
(٢) ديوانه ٢٥
(٣) ديوانه ٥٩
(٤) ديوانه ٧١
(٥) الديوان ص ٧١

عاين بقلبك ان العين غافلة عن الحقيقة واعلم انها سَقَرُ
سوداء تزفر من غيظ اذا سَعرت للظالمين . فلا تبقى ولا تذر
ان الذين اشتروا دنيا بأخرة وشقوة بنعيم ساء ما تجروا
انت المقول له . ما قلت مبتدئاً « هلا ابتكرت لبين انت مبتكر » ؟

وهو يعارض فيها ابياتاً قالها في خطاب فتى كان يألفه أزمع على السفر فحال المطر الغزير دون ذلك فكتب له[١] :

هلا ابتكرت لبين انت مبتكر هيهات يأبى عليك الله والقَدَرُ
ما زلت ابكي حذار البين ملتهفاً حتى رثى لي فيك الريح والمطرُ
آليت الا ارى شمساً ولا قمراً حتى اراك فانت الشمس والقمرُ

وقد أشار الحميدي الى غزارة اشعاره في هذا الباب وحدد مفهوم الممحصات بقوله (وذلك انه نقض كل قطعة قالها في الصبا والغزل بقطعة في المواعظ والزهد . محصها بها كالتوبة منها والندم عليها . كما انه وصف هذه الاشعار بأنها كثيرة جداً[٢]. وقد أفرد الباحث على ابراهيم ابو زيد كتاباً فيه[٣].

ثالثاً : شاعريته وسماته الفنية :

فيما تقدم وقفنا عند موضوعات شعر ابن عبد ربه واشرنا الى اعجاب نقاد عصره بشاعريته . التي اتسمت بالغزارة في النتاج . والتنوع في الموضوعات حتى رأى الباحثين انه كان نقطة تحول في الشعر العربي بالاندلس وقد تأثر به شعراء اندلسيون كثيرون[٤].

وقد تناول شاعريته . وأبرز سماتها . عدد من الباحثين منهم :

الدكتور احسان عباس الذي يرى أن شعره يقع بين قطبين ويشغل مرحلتين[٥]. أمّا القطبان فهما البديهة والكد الذهني والمقصود بالبديهة السهولة . وطابع الخفة الارتجالية . وربما كان من أثر ارتجال اشعاره في رأي الدكتور احسان

---

(١) الديوان ص ٧٠
(٢) جذوة المقتبس ص ١٠٢
(٣) الممحصات في شعر ابن عبد ربه الاندلسي . دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة ١٩٨٦ /
(٤) قضايا اندلسية ٦٨
(٥) تاريخ الادب الاندلس ١ / ١٩٤

عاين بقلبك ان العين غافلة عن الحقيقة واعلم انها سَقَرُ
سوداء تزفر من غيظ اذا سَعرت للظالمين . فلا تبقى ولا تذر
ان الذين اشتروا دنيا بأخرة وشقوة بنعيم ساء ما تجروا
انت المقول له . ما قلت مبتدئاً « هلا ابتكرت لبين انت مبتكر » ؟

وهو يعارض فيها ابياتاً قالها في خطاب فتى كان يألفه أزمع على السفر فحال المطر الغزير دون ذلك فكتب له[١] :

هلا ابتكرت لبين انت مبتكر هيهات يأبى عليك الله والقَدَرُ
ما زلت ابكي حذار البين ملتهفاً حتى رثى لي فيك الريح والمطرُ
آليت الا ارى شمساً ولا قمراً حتى اراك فانت الشمس والقمرُ

وقد أشار الحميدي الى غزارة اشعاره في هذا الباب وحدد مفهوم الممحصات بقوله (وذلك انه نقض كل قطعة قالها في الصبا والغزل بقطعة في المواعظ والزهد . محصها بها كالتوبة منها والندم عليها . كما انه وصف هذه الاشعار بأنها كثيرة جداً[٢]. وقد أفرد الباحث على ابراهيم ابو زيد كتاباً فيه[٣].

ثالثاً : شاعريته وسماته الفنية :

فيما تقدم وقفنا عند موضوعات شعر ابن عبد ربه واشرنا الى اعجاب نقاد عصره بشاعريته . التي اتسمت بالغزارة في النتاج . والتنوع في الموضوعات حتى رأى الباحثين انه كان نقطة تحول في الشعر العربي بالاندلس وقد تأثر به شعراء اندلسيون كثيرون[٤].

وقد تناول شاعريته . وأبرز سماتها . عدد من الباحثين منهم :

الدكتور احسان عباس الذي يرى أن شعره يقع بين قطبين ويشغل مرحلتين[٥]. أمّا القطبان فهما البديهة والكد الذهني والمقصود بالبديهة السهولة . وطابع الخفة الارتجالية . وربما كان من أثر ارتجال اشعاره في رأي الدكتور احسان

---

(١) الديوان ص ٧٠
(٢) جذوة المقتبس ص ١٠٢
(٣) الممحصات في شعر ابن عبد ربه الاندلسي . دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة ١٩٨٦ /
(٤) قضايا اندلسية ٦٨
(٥) تاريخ الادب الاندلس ١ / ١٩٤

عباس ـ أن التيار العاطفي في شعره مفقود ومختنق . حتى في أشد الحالات التي يمكن أن تثور فيها عاطفة . كموت ابنائه[١] .

لقد كانت الاخبار المتصلة باشعاره تنبئنا عن بدهيته في النظم وعدم تكلفه ومكابدته فيه بما يشير الى أن الشاعر غير متكلف . وانه صاحب شاعرية قوية . وملكة مطبوعة . ولا نرى في هذه البداهة والطبع . ما يتناقض مع جودة الشاعرية . وصدق العاطفة . كما اننا نجد الشاعر يميل الى العناية بصياغة أبياته . لتتحقق له فيها صنعة فنية . ألمح اليها الدكتور بدير متولي حميد في قوله « فأن سمة الأختراع وجدّة التفكير وبراعة التصوير طغت على أشعاره »[٢] وتمثلها الدكتور احسان عباس في ممحصاته التي نظمها معارضاً قصائده الشعرية المبكرة ناقضاً اياها[٣] .

واما المرحلتان اللتان شغلتهما اشعاره فتقترنان بقطبي شعره . اقترن شبابه بالبديهة وشيخوخته بالكد والصنعة وتتجلى المرحلتان بوضوح في مذهبه الفني . الذي ابتدعه حين عارض أشعار المرحلة الأولى في مرحلته الثانية . واختص الأدب الأندلسي بفن طريف سماه الممحصات وهي أبيات نظمها في الزهد والتوبة . عما تقدم من اشعاره . في مرحلة الشباب . التي كان يجنح فيها الى شيىء من التساهل بالمتع المباحة حين أقبل على الحياة في جوانبها التي تحقق تلك المتع على نحو ما يعبر عن ذلك بقوله عن الغناء والشراب[٤] :

ديننا في السّماع دَينَ مديني ي وفي شربنا الشراب عراقي

وله من ابيات أخرى يشير صراحه الى الشّراب فيقول[٥] :

اما الشراب فاني لست أقربهُ ولست آتيك الا كسرتي بيدي

« فتوبته توبة فقيه متحرج لا توبة عابث لاه[٦] » لأنّ نشأته الأولى وسيرته المبكرة تؤكد لنا انه في قصائده الغزلية . لم يكن ذا أربة .. كما تقدم القول آنفاً خلال الحديث عن غزله . ومن أبياته المشهورة في هذا الاتجاه قوله اذ اتفق أن

---

(١) نفسه ١٩٥

(٢) قضايا اندلسية ٦٧

(٣) تاريخ الادب الاندلس ١ / ١٩٥

(٤) ديوانه : ١٢٥ يشير بذلك الى مذهب مالك امام دار الهجرة في اباحة السماع . ومذهب ابي حنيفة في اباحة شرب النبيذ .

(٥) ديوانه ٥١

(٦) تاريخ الادب الاندلسي ١ / ١٨٤

اجتاز بدار الكاتب ابن قلهيل وكانت له جارية تدعى « مصابيح » تغني . فاستوقفه صوتها فكتب له يقول[1] :

يامن يضنّ بصوت الطائر الغرد ما كنت أحسب هذا الضنّ من أحد
لو أن اسماع اهل الأرض قاطبةً أصغت الى الصوت . لم ينقص ولم يزد
لو لا أتقائي شهاباً منك يحرقني بناره لا سترقت السمع من بُعدِ
لو كان زريابُ حياً ثم أسمعه لماتَ من حسرة . أو ذاب من كمدِ
فلا تضنّ على أذني تقرطها صوتاً يجول مجال الروح في الجسد

ومن الباحثين المحدثين الدكتور احمد هيكل . حيث وقف عند اشعاره بالدراسة والبحث . ورأى في شعره انه لا يلتزم اتجاهاً واحداً . من اتجاهات عصره . فهو محافظ حيناً . ومجدث أحياناً . ثم هو يشارك في الأخذ بالاتجاه الشعبي[2] . ويخلص الى تحديد أبرز سمتين في شعره وهما : البساطة . والغنائية .

والسمة الاولى . تتعلق باسلوب الشاعر والأمثلة عليها من شعره كثيرة . واما السمة الثانية . فتتمثل في غلبة الجانب الموسيقي واتضاح العنصر العاطفي . وشيوع الرقة والسلاسة . ويسوق الدكتور هيكل امثلة على تينك السمتين[3] .

اما الدكتور موسى رزق ريحان[4] . فقد أشار الى أبرز الخصائص في شاعريته حيث تقلصت عنده بعض الموضوعات . ومنها شعر الفخر . وذلك معزو الى اصله المتواضع والواقعية التي امتاز بها . والى روحه الاسلامي الذي تغلغل في اعماقه .

وفيما يتصل بلغة الشاعر واسلوبه لاحظ الدكتور ريحان شيوع الالفاظ ذات الدلالات الموحية بالجمال . وشيوع اللون متنوعاً بين مرحلتين من مراحل حياته الى جانب شيوع كثير من الاسماء الفلكية . وينتهي الى أن اكثر السّمات وضوحاً في شعره . يتمثل في الالفاظ القرآنية والمصطلحات الفقهية والشرعية . وهذه الثقافة الدينية تبدو حتى في شعرهَ الغزلي خيوطاً من حرير لا تجرح نفساً . ولا تدمي جسداً . وهي في شعر الزهد زفرات حزينة . ودموع سخينة واما في شعر الجهاد فهي تهليل وتكبير ..

---

(١) ديوانه ٥١

(٢) الادب الاندلس ٢٢٩ ـ ٢٣٠

(٣) نفسه ٢٣١

(٤) شعر ابن عبد ربه ٢٣١

ومن شأن الثقافة الدينية أن يعتمد صاحبها ـ على كثرة الاقتباس من القرآن الكريم اقتباساً مباشراً . وآخر غير مباشر . ومن أمثلة ذلك ما جاء في أبياته القافية في مدح الأمير عبدالله بن محمد حيث يقتبس اشارياً في قوله تعالى (البقرة ١٩٧) « فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج »

وقوله في ابياته الجيمية التي يمدح بها الناصر . وهو مما تقدم بنا حيث يقتبس من قوله تعالى (النصر ٢) « ورأيت الناس يدخلون في دين الله افواجا » .

وفي قصيدته الممحصة . اقتباس من قوله تعالى (المدثر ، ٢٨) . « لا تبقى ولا تذر » ومن قوله تعالى (البقرة ١٦) . « اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » كما رأيناها جلية في ابياته الدالية في الجارية مصابيح اذ يقتبس اقتباساً غير مباشر من قوله تعالى (الجن ٨ ـ ٩) « فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً . وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع . فمن يستمع الآن يجدله شهاباً رصداً » . ومن امثلة هذا الاقتباس ما جاء في قوله[١] ،

ما انتم شيىء ولا علمكم وقد ضعف المطلوب والطالب
تغالبون الله في حكمه والله لا يغلبه غالب

فيه اقتباس من قوله تعالى (الحج ٧٣) « ضعف الطالب والمطلوب » ومن قوله تعالى (يوسف ٢١) . « والله غالب على امره .. »

او قوله[٢] :

ولو أنّ موسى جاء يضرب بالعصا لما انبجست من ضربه البخلاء

وقوله[٣] :

فصادفت حجراً لو كنت تضربه من لؤمه بعصا موسى لما انبجسا

وفيه اقتباس من قوله تعالى (الاعراف ، ١٦٠) : « فقلنا اضرب بعصاك الحجر . فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً » .

ويتجلى الاقتباس أوضح ما يتجلى في ارجوزته التاريخية التي يقول فيها[٤] ،

سبحان من لم تحوه اقطار ولم تكن تدركه الابصار
ومن عنت لوجهه الوجوه فما له ندّ ولا شبيه

---

(١) ديوانه ٢١ (٢) ديوانه ١٥ (٣) ديوانه ٢ (٤) ديوانه ١٨١

سبحانه من خالق قدير وعالم بخلقه بصير
وأول ليس له ابتداء وآخر ليس له انتهاء
وسعنا إحسانه وفضله وعزّ أن يكون شيىء مثله

حيث يقتبس من التنزيل في قوله (الانعام ١٠٣) : « لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير »[١] وقوله (طه ١١١) و « عنت الوجوه للحي القيوم »[٢] وقوله (الحديد ٣) « هو الاول والآخر والظاهر والباطن »[٣] وقوله (الشورى ١١) « ليس كمثله شيىء »[٤].

والملاحظ أن ابن عبد ربه يجرى في الاتجاه العام الذي جرى عليه الشعر الأندلسي في مجال الاقتباس اذ تأتي اقتباساتهم غير مباشرة . وهي نزعة ناجمة عن رأى المالكية في كراهة الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر[٥].

ولا يتوقف الامر على الاقتباس من القرآن الكريم بل يتجاوزه الى الحديث النبوي الشريف والامثال[٦]. وقد لمح ابن شرف القيرواني (٤٦٠ هـ) هذه النزعة فوصفه بقوله « واطلعنا في شعره على علم واسع . ومادة فهم مضيىء ناصع[٧] »

ولا بد من التنويه بسمة تتجلى في شعر ابن عبد ربه . وهي مما يتصل بثقافته . تبدو في تعلقه الشديد بالثقافة المشرقية وموروثها الشعري الضخم . وقد تجلى لنا في صور متعددة فهو يحتذي الشعر القديم في كتاب العقد الفريد ـ الجوهرة الثانية في اعاريض الشعر . وذلك حين يسوق أمثلة من شعره على الاعاريض والاضرب لكل بحر . ويختم كل قطعة شعرية ببيت من الشعر القديم بشكل يكاد يكون مطرداً[٨].

ومن صوره الأخرى معارضته لشعراء المشرق . وهي تأتي على طريقتين . الاولى : تتمثل في أنه يستعرض في كتابه أمثلة شعرية في موضوع معين . ثم يشفعها بأبيات من شعره . دون أن يلتزم الوزن او القافية . كما فعل ذلك حين تحدث في كتاب التوقيعات والفصول والصدور من كتاب المجنبة في الأجوبة[٩]. حيث يتناول الكلام على الاقلام وساق قطعاً شعرية لشعراء منهم : ابو الحسن محمد بن عبد

---

(١) ديوانه : ٣١ (٢) ديوانه ١٥ (٣) ديوانه : ٢ (٤) ديوانه ١٨١ (٥) الاتجاه الاسلامي ٤٨٢ (٦) ديوانه ص ٨٣ (٧) الذخيرة ٤ / ١ / ٢١٠ (٨) العقد الفريد ٥ / ٤٤٢ ـ ٤٧٤ (٩) العقد الفريد ٤ / ١٩١ ـ ١٩٤

الملك الهاشمي . والعلوي . وابو تمام . والبحتري . وابن ابي طاهر . ثم انتهى بقوله (ومن قولنا في القلم)

بـكـفـه ساحر الـبـيان اذا أداره في صـحـيـفة سـحرا

والقصيدة في اربعة عشر بيتاً . وقد خالف فيها نظراءه ممن أورد اشعارهم فيه ووافقهم في المعنى العام . وهي معارضة جزئية .

والثانية تتجلى في معارضاته التي تمثل مرحلة متقدمة من شعور الاندلسيين بالثقة بالنفس محاولةً لبلوغ شأو المشارقة وذلك حين يلتزم الشاعر الوزن والقافية وحركة الروى والمضمون . ويعارض صريع الغواني مسلم بن الوليد في لاميته التي مطلعها .

أديرا عليَ الرّاح لا تشربا قَبلي ولا تَّطلبا من عندِ قاتلتي ذَحلي

حيث يسوق لنا ثلاثة ابيات من قصيدة مسلم ثم يشفعها بقصيدته في اثني عشر بيتاً . مصرحاً بأنه يعارضه فيها يقول :

أتقتلني ظلماً وتجحدني قتلي وقد قام من عينيك لي شاهدا عدلِ

وهي قصيدة رقيقة تفيض بالعواطف والصور الطريفة ولم يكتف شاعرنا بايراد أبياته فقط . لكي يصور القارىء حكمه عليها بل انتقل الى نقدها فعقب عليها بقوله : « فمن نظر الى سهولة هذا الشعر مع بديع معناه ورقة طبعه لم يفضله شعر صريع الغواني عنده الا بفضل التقدم . ولا سيما اذا قرن قوله من هذا الشعر .

كتمت الذي القى من الحب عاذلي فلم يدري ما بي فاسترحت من العذل

بقولي في هذا الشعر :

واحببت فيها العذل حباً لذكرها فلا شيىء اشهى في فؤادي من العذل
كتمت الهوى جهدي فجرده الأسى بماء البكا هذا يخط وذا يملي
أقول لقلبي كلما ضامه الأسى اذا ما ابيت العز فاصبر على الذلِ[1]

فهو في معارضته لابي تمام يلتزم المعاني العامة ثم يعتمد على « التقليب والتغيير والعكس والاسهاب »[2] . وهو لا يختلف في معارضته لصريع الغواني الا بالتزام الوزن والقافية . وليست ممحصاته الا استمراراً لروح المعارضة التي سيطرت عليه فهو « حين شبع من معارضة الآخرين اخذ يعارض نفسه[3] »

(١) العقد الفريد ٥ / ٢٩٨ ـ ٢٩٩ ، ديوانه ١٣٢ (٢) تاريخ الآدب الاندلسي ١ / ٢٠٢ (٣) نفسه ٢٠١

ومن الدارسين المحدثين الاستاذ عبد القادر زمامة وصف اسلوب الشاعر بقوله :
« واسلوبه الشعري بصفة عامة أصيل سهل التناول ... مع نفحة موسيقية وحاسة فنية تعطي الدارس دليلاً على وفرة التجربة وأصالة الشاعرية وطول النفس الشعري وتنوع اتجاهاته »[١] الا ان الباحث نفى ان يكون عند الشاعر عمق الفكرة ودقة الصورة . وخصب المعاني[٢] .

---

(١) الشاعر الاندلسي ابن عبد ربه القرطبي مجلة المورد ٦ / ٢ / ١٩٧٧ ص ٤٢
(٢) نفسه ٤٢

لحظة »[1]. ويصف ابن سعيد كيف تتسلط الالسنة على الكاتب الذي يلحن أو يخطيء في الكتابة وكيف يطعنون فيه . وهذا ما حصل فعلاً بالنسبة لكاتب الأمير محمد بن عبد الرحمن (عبد الملك بن عبد الله) . حيث كان هاشم بن عبد العزيز كثير التتبع لهفواته وسقطاته والتشنيع عليه .[2]. والنص المتقدم يوضح لنا مدى اهتمام الاندلسيين بالكتابة وعنايتهم بها .

١ / خطبة طارق بن زياد

تتداول المصادر التاريخية والأدبية ذكر هذه الخطبة وذلك لاقترانها بحدث مهم في تاريخ الاندلس ولاتصالها بشخصية من الشخصيات البارزة في التاريخ الاسلامي فاذا صحت نسبتها الى طارق فستكون أقدم نص نثري . أدبي ولا نعرف لطارق غير هذه الخطبة وأبيات ثلاثة يحدثنا فيها عن عبوره الى الأندلس . رواها الحجاري في المسهب[3] .

ومن الغريب ان لا ترد الخطبة في مصادر التاريخ الأندلسي المبكرة التي تناولت تفصيلات دقيقة عن فتح الأندلس . باستثناء النص الذي اورده عبد الملك بن حبيب (٢٣٨ هـ) في كتابه (استفتاح الاندلس)[4] والنص الذي اورده ابن قتيبة[5] (٢٧٦ هـ) في كتابه (الامامة والسياسة) وروايتهما للخطبة تختلف اختلافاً كبيراً عن النص المتداول وأقدم رواية للخطبة جاءت عند مؤرخ مشرقي هو ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ) ويبدو أن صاحب النفح نقل عنه واستهل الخطبة بقوله : « قال بعض المؤرخين » .

وقد وقف عدد من الباحثين بالدراسة المتأنية لنص الخطبة التي يتسرب الشك في صحة نسبتها الى القائد طارق بن زياد ومنهم الدكتور احمد هيكل في كتابه الادب الاندلسي سنة ١٩٥٨ . والدكتور عبد الرحمن علي الحجي في التاريخ الاندلسي

---

(١) نفح الطيب ١ / ٢١٧ .

(٢) ينظر الحوار الذي جرى بين الأمير محمد وهاشم في هذا الخصوص ، البيان المغرب ٢ / ١٠٨ .

(٣) النفح ١ / ٢٦٥

(٤) حققه د . محمود علي مكي مجلة معهد الدراسات الاسلامية مدريد العدد ٥ / ١٩٥٧ .

(٥) الامامة والسياسة نشر النص الخاص بالاندلس مع كتاب تاريخ افتتاح الاندلس لابن القوطية ١٣٨ ـ ١٣٩ كذلك أورد ابن هذيل الأندلسي (القرن الثامن الهجري) برواية مختلفة في كتابه تحفة الانفس وشعار سكان الاندلس ص ٧٠ ـ ٧١ .

سنة ١٩٧٦ [١]. من أهم عوامل الشك في الخطبة ما ذكرناه آنفاً من عدم ذكر المصادر الاندلسية المتقدمة لها .

وفضلاً عن عوامل الرواية فأن هناك عوامل تاريخية فكرية . وأخرى فنية تتصل باسلوب الخطبة . وهذه العوامل مجتمعة تجعلنا نشك في « رواية ابن خلكان للخطبة . واليك الأدلة التاريخية والفكرية :

١ ـ عدم تلاؤم المعاني التي جاءت في الخطبة . مع الروح الاسلامية العالية التي تحلى بها القائد وجنده . فليس في الخطبة إشادة بدوافع الفتح . والحث على طلب الشهادة . كما هو معهود في خطب الجهاد . إذ من غير المعقول ان يغري جنوده بالمغريات المادية . في مقام يستدعي بذل الأرواح في سبيل الله .

٢ ـ حداثة عهد طارق بالاسلام . لا تتيح له هذه البلاغة والبراعة في خطبته . لاسيما ان اللغة العربية كانت جديدة عليه [٢]. فالغالب أنه بربري من نفزة . ويبدو أن أباه زياداً قد اسلم في ايام عقبة . وحسن اسلامه . وخلفه ابنه هذا فدخل في خدمة ولاة المسلمين وكان صغير السن حينما عهد اليه موسى بهذه المهمة الكبرى . لاننا لم نسمع به قبل ذلك في اي فتح [٣]..

٣ ـ ترد في الخطبة معلومات تاريخية مغلوطة فقد جاءت كلمة « اليونان » وربما جاءت الكلمة خطأ لتحقيق السجع . والمعتاد أن يُذكرَ « الرومان » او « القوط » او « العلوج » و « العجم » او المشركون والكفار [٤]. في مثل هذا المقام . ولو ذكر « الرومان » لجاز لانهم يمثلون عنصراً من عناصر المجتمع الاسباني .

٤ ـ كذلك من الاخطاء التاريخية ما جاء من ان الوليد بن عبد الملك قد اختارهم عرباناً والصواب تاريخياً ان الذي انتخبهم هو موسى بن نصير [٥] ـ اللهم ان كان ذلك مقصوداً على سبيل المجاز ـ وأن نسبة البربر المشاركين في الفتح

---

(١) كذلك شك الدكتور حكمة الاوسي في الخطبة في كتابه فصول في الادب الاندلسي ص ٦١ ، وينظر مقال الدكتور احمد بسام ابو ساعي « خطبة طارق بن زياد وهل قالها حقاً ، مجلة العربي ٢٩٣ / ٩٦ ـ ٩٨ (الكويت ١٩٨٣) .

(٢) الادب الاندلسي / د . هيكل ٧٣

(٣) فجر الاندلس ٦٨

(٤) التاريخ الاندلسي ٦٠

(٥) نفسه ٦٠

كانت عالية . وعدد الذين صبحوا جيش طارق بن زياد من العرب كان قليلاً وقد صحبوهم من أجل تعليمهم مباديء الاسلام .

وفي النص التالي من الخطبة ما يشير الى الأخطاء التي ذكرناها « وقد بلغكم ما انشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان . الرافلات في الدر والمرجان . والحلل المنسوجة بالعقيان والمقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك امير المؤمنين من الابطال عرباناً . ورضيكم لملوك الجزيرة أصهاراً واختاناً .. »

واما العوامل الفنية التي تنفي نسبة الخطبة الى طارق فهي :

١ ـ ان الخطبة لا تنسجم في سلوبها وخصائصها الفنية ان يكون طارق صاحبها لطولها من ناحية . ولاعتمادها على السجع المتكلف من ناحية أخرى . فالصفة التي تتصف بها خطب القرن الأول الهجري هي الايجاز . والتركيز . واما السجع المتكلف فهو من خصائص . القرون المتأخرة . اتفق على ذلك الدارسون . وما يأتي من السجع في العصور الاولى يأتي عفو الخاطر ولا يكون متكلفاً على نحو ما نجد في الخطبة .

٢ ـ وأن الخطبة يفترض أن تتضمن اقتباسات قرآنية على نحو ما هو معروف في خصائص النثر في القرن الاول الهجري . لكنها خلت من ذلك خلواً تاماً .

وخلاصة القول . إننا لا ننكر انكاراً قاطعاً . أن يكون طارق قد القى خطبة في جيشه قبيل المعركة . بل نجد مثل ذلك طبعياً . ومنسجماً مع تقاليد الجهاد في الجيوش العربية الاسلامية ولكننا نرجح ان تكون خطبته التي القاها غير الخطبة التي وردت في كتب المتأخرين . ولعل النص الذي أورده عبد الملك بن حبيب وهو من مؤرخي الأندلس الموثوق بهم هو الخطبة التي يمكن نسبتها الى طارق واليك نصها[١] :

« فلما بلغ طارقاً دنوه منه قام في أصحابه . فحمد الله واثنى عليه . ثم حض الناس على الجهاد . ورغبهم في الشهادة . ثم قال : ايها الناس اين المفر . والبحر من ورائكم . والعدو امامكم ؟ فليس لكم والله الا الصدق والصبر الاواني صادم الى طاغيتهم بنفسي . لاأقصر حتى أخالطه اوأقتل دونه ! »

---

(١) مجلة معهد الدراسات الاسلامية ٥ / ٢٢٢

واما النص الذي اورده ابن قتيبة فيبدأ البداية نفسها لكنه يختلف بعدها . على نحو ما نرى في النموذج :

« ايها الناس الى اين المفر . البحر وراءكم . والعدو امامكم . فليس لكم والله الا الصدق والصبر . فانهما لا يغلبان . وهما خيران منصوران . لاتضر معهما قلة . ولا ينفع معهما الحذر والكسل والاختلاف والفشل والعجب كثرة .

ايها الناس : ما فعلت من شيء فافعلوا مثله . إن حملت فاحملوا . وإن وقفت فقفوا . وكونوا كهيئة رجل واحد في القتال . وإني صامد الى طاغيتهم لأتهيبه حتى أخالطه او اقتل دونه فلا تهنوا ولا تنازعوا إن قتلت . فتفشلوا وتذهب ريحكم وتولوا الأدبار لعدوكم فتبيدوا بين قتيل ومأسور ... الخ [١] .

والخطبة جاءت في حوالي عشرة أسطر . وهي الى خصائص نثر القرن الاول الهجري أقرب من رواية ابن خلكان والله أعلم .

ب ـ النثر في عهد الخلافة (٣١٦ ـ ٤٠٠)

سنحاول في هذه الصفحات . أن نلم المامة سريعة . بحالة النثر في عصر الخلافة بعد أن وقفنا فيما تقدم عند النثر الأندلسي قبل هذا العصر . وحيث ان النثر الفني قطع رحلة طويلة من عمره . فلا بد له أن يختلف عما كان عليه في العصور السابقة فقد كثر الكتاب في هذا الميدان . فيما سجله لنا ابن عذاري . خلال حديثه عن الخليفتين الناصر والمستنصر . ومن هؤلاء ابن المنذر . وابن جهور . وابن بسيل [٢]. وابن فطيس [٣]. وأبن بدر [٤] والزجالي [٥]. والمصحفي . وفضلاً عن الكتاب مارست المرأة الاندلسية الكتابة الرسمية ومنهن : مزنة كاتبة الخليفة الناصر . ولبنى كاتبة المستنصر .

وليس غريباً ان يختلف النثر الفني في خصائصه العامة . فقد بدأ متأثراً من حيث الاستطراد بالمذهب الجاحظي واعتمد على المحسنات البديعية اكثر مما كان

---

(١) تاريخ انتاج الاندلس لابن القوطية . نص ابن قتيبة في الامامة والسياسة ملحق به ص ١٢٨ ـ ١٢٩ (ط عبد الله انيس الطباع ـ دار النشر للجامعيين ـ بيروت سنة ١٩٥٧ .

(٢) البان المغرب ٢ / ١٦٩

(٣) نفسه ٢ / ٢٣٤

(٤) نفسه ٢ / ١٥٩ ، ١٦٥ ، ١٦٧

(٥) نفسه ٢ / ١٥٨

الذخيرة لابن بسام . كابن شهيد (ت ٤٢٦ هـ) وعمر بن الشهيد (٤٤٠ هـ) وابني برد الاصغر (توفي بعد ٤٤٠ هـ) والاكبر (٤١٨ هـ) وابني حزم الاندلسي ابو المغيرة عبد الوهاب بن احمد (ت ٤٣٨ هـ) وابو محمد علي بن احمد بن حزم (٤٥٦ هـ) . وسنقف فيما يلي على احد ابرز الكتب في هذا العصر . كتاب العقد الفريد .

العقد الفريد

من المصادر المهمة في المكتبة العربية انتهى ابن عبد ربه من تأليفه سنة ٣٢٢ هـ ويبدو ذلك في ارجوزته التي تحدث فيها عن تاريخ الأندلس ثم توقف عند عام ٣٢٢ هـ[١] . فهو يمثل الكاتب في نضجه الثقافي قبيل وفاته بستة اعوام .

وقد اختلف في تسمية الكتاب فرأى عدد من الباحثين المحدثين أن اسمه « العقد » ورأى آخرون أنه « العقد في الأخبار » . واما لفظة (الفريد) فقد أضيفت اليه فيما بعد . ودليلهم في ذلك أن المصادر القديمة التي عرّفت بالكتاب . لم تذكر لفظة الفريد . وأن أول من ذكرها الا بشيهي (ت ٨٥٠ هـ) في مقدمة كتابه المستطرف من كل فن مستظرف[٢] . ولكن المؤلف يزيل هذا الابهام . ويحقق لنا اسم الكتاب في مقدمته . حيث يقول : « وسميته كتاب ـ العقد الفريد ـ لما فيه من مختلف جواهر الكلام . مع دقة السّلك . وحسن النظام[٣] » .

وأما ذكر القدماء لاسمه مجرداً من كلمة « الفريد » فهو في الغالب على سبيل الايجار والاختصار . كما هو مألوف لدينا في ذكر المصادر فنقول : « القلائد . والجذوة . والبغية . والنفح » ونريد بها قلائد العقيان . وجذوة المقتبس . وبغية الملتمس . ونفح الطيب .

ومن عنوان الكتاب نعلم أن المؤلف تصور كتابه في صورة عقد حباته فريدة وثمينة . ولذلك جعل أبواب كتابه خمسة وعشرين باباً . كل باب باسم جوهرة واختار اثنتى عشرة جوهرة . لأبواب الكتاب . وقابلها باثنتي عشرة أخرى . ثم جعل الواسطة الخامسة والعشرين فلكل حجارة كريمة في العقد مثيلتها . في النصف الآخر . وقد جعل كل كتاب منها جزئين . فاجتمع منها خمسون جزءاً في خمسة

---

(١) العقد ٢ / ٢٧٧

(٢) المستطرف ١ / ٢٢ ، وينظر ابن عبد ربه وعقده ٤٩

(٣) مقدمة العقد ١ / ٤

وعشرين كتاباً . وبدأها باللؤلؤة في السلطان وختمها باللؤلؤة الثانية في الفكاهات والملح .

ومنهجه في مادة الكتاب انه يختار . وينتقي الاخبار التي هي جديرة بالجمع. ثم ينسقها وفق الموضوعات المتشابهة في ابواب محددة . وقد نوّع وغير في اختيار الموضوعات . ولم يحصرها في صنف واحد . وحذف الاسانيد والرواة من الأخبار التي يريدها . على سبيل الايجاز ودفع السأم عن القاريء .

وأما مصادره في الكتاب . فهي مصادر الثقافة العربية التي سبقته . ومنها : عيون الاخبار لابن قتيبة . والبيان والتبيين . والبخلاء . والحيوان . للجاحظ . والكامل للمبرد . وطبقات الشعراء لابن سلام . والسيرة لابن هشام . وكليلة ودمنة لابن المقفع . ودواوين الشعراء الجاهليين والاسلاميين .[١]

ولاهمية الكتاب تناولته الاقلام بالدراسة والبحث . وفي مقدمة هذه الدراسات الرسالة الجامعية التي قدمها الدكتور جبرائيل جبور بعنوان « ابن عبد ربه وعقده » سنة ١٩٣٣ وجاء الحديث عنه في عدد من الدراسات التي تناولت الأدب الأندلسي . ومنها : كتاب الدكتور احمد هيكل .[٢] وكتاب الدكتور الطاهر أحمد مكي .[٣] ووقف الدكتور محمد رضوان الداية بحثه على الجانب النقدي من الكتاب .[٤] اما الدكتور حازم عبد الله خضر . فقد كتب بحثه ليدرس : (العقد الفريد بين المشرق والأندلسي)[٥] .

ومن القضايا المهمة . دراسة أهمية الكتاب . وآراء النقاد القدماء والمحدثين فيه . فقد اقترن ذكر الكتاب بمقولة للصاحب بن عباد انفرد ياقوت الحموي بذكرها . فقال : « وبلغني ان الصاحب بن عباد سمع بكتاب العقد . فحرص عليه حتى حصل عنده . فلما تأمله قال : « هذه بضاعتنا ردت الينا ظننت ان هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم وانما هو مشتمل على اخبار بلادنا لا حاجة لنا فيه فردّه »[٦] .

---

(١) ابن عبد ربه وعقده ٥٦ ـ ٧٠ وينظر الادب الأندلسي ص ٢٦٢

(٢) الادب الأندلسي ٢٦٠ ـ ٢٦٦

(٣) دراسة في مصادر الأدب ٢٢٠ ـ ٢٢٤

(٤) تاريخ النقد الادبي في الاندلس ٢٨٠ ـ ٢٨٣

(٥) مجلة آداب الرافدين ص ٢٢٩ ـ ٢٦٤ العدد السابع الموصل ١٩٧٦

(٦) معجم الأدباء ٤ / ٢١٤ (ط المستشرق)

كما لم يسلم ابن عبد ربه من أمثال الصاحب بن عباد . فقد نقده مواطنه . وعصريّة محمد بن يحيى القلفاط (ت ٣٢٢ هـ) وسمّى كتابه باسم « حبل الثوم » تشويهاً وتحقيراً[١] . ولعل ذلك بسبب المهاجاة التي كانت بينهما . وعاب عليه ابن ربيب القيرواني في رسالته . وقد رد عليها ابن حزم الاندلسي برسالته المعروفة في فضائل الاندلس . فمما قاله ابن الربيب : « على انه يلحقه فيه بعض اللوم . لاسيما اذ لم يجعل فضائل بلده واسطة عقده . ومناقب ملوكه يتيمة سلكه . أكثر الحز وأخطأ المفصل . وأطال الهز لسيف غير مقصل . وقعد به ماقعد بأصحابه . من ترك مايعنيهم . واغفال ما يهمهم »[٢]

وأمثال هذه الأحكام التي اصدرها القدماء في كتاب العقد الفريد . تدل دلالة واضحة على اصداء تأليف الكتاب من ناحية . والمعركة الثقافية . والصراع الأدبي . اللذين احتدما بين الأندلسيين والمشارقة وانتهيا الى صورة من صور المنافسة والمعارضة . بدوافع التفوق والتميز .

فأما حكم الصاحب بن عباد . فهو غير دقيق . لأنه تأمّل الكتاب تأملاً سريعاً فأصيب بخيبة أمل فيه . اذ لم يجد بغيته وما كان يتطلع اليه في الكتاب . فقال قولته المتقدمة آنفاً وهي كما يرى الدكتور مصطفى عليان « تمثل الموقف الأدبي للمشارقة من جهود الأندلسيين الأدبية . لأن العبارة تكشف عن عمق الرغبة في التعرّف الى أدب الأندلسيين الذي جاء العقد مبدداً لها . في عدم العناية بأدب الأندلس عناية كاملة »[٣]

والذي نراه ان الهدف الذي دعا المؤلف الى تأليف كتابه هو :

١ ـ تعريف أهل الأندلس بالمشرق . ونقل الأخبار والمعلومات من مصادرهم . لأن الاندلسيين مغرمون ومعجبون بكل ما هو مشرقي .
٢ ـ تعريف أهل المشرق بأهل الأندلس وعرض جانب لا يستهان به من اخبارهم .
٣ ـ تقوية ثقة أهل الأندلس بأنفسهم وبأنهم قادرون على ما توصل اليه أهل المشرق . وفي هذا المجال يقول ابن عبد ربه في مقدمته للكتاب « وقرنت به غرائب من شعري . ليعلم الناظر في كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته . وبلدنا على انقطاعه . خط من المنظوم والمنثور »[٤] .

---

(١) المقتبس ص ٤٢ (ط باريس ١٩٣٧) ، النفح ٢ / ٢٩٤ وينظر : الشاعر الأندلسي ابن عبد ربه القرطبي المورد ٦ / ٢ / ٤٣

(٢) النفح ٢ / ١٥٨

(٣) تيارات النقد الأدبي ٨٢ (٤) العقد ١ / ٤ .

إن الجانب الأندلسي واضح في الكتاب . وهو يتمثل بالمرتبة الأولى في أشعار المؤلف التي انتظمت أجزاء الكتاب وصفحاته . وهي تقارب ألف بيت . فضلًا عن أرجوزتيه الأولى : في غزوات عبد الرحمن الناصر التي بلغت ٤٤١ بيتاً . والثانية : في العروض وهي تناهز مئتي بيت .

وزيادة على ما تقدم . الأشعار التي أوردها المؤلف لشعراء الأندلس من أمثال يحيي الغزال . وعباس بن فرناس . ومؤمن بن سعيد وغيرهم .

كما يتمثل الجانب الأندلسي في النصوص النثرية التي تضمنها الكتاب بأسلوب المؤلف . اذ كان يستهل صدر كل كتاب بفرش أدبي . والمتأمل في هذه المقدمات يلاحظ انها صيغت بعناية أدبية وموهبة فنية وبراعة بيانية .[١]

ومن هنا وصف الكتاب بأنه « عظيم القيمة من النواحي التأريخية . والادبية . والعلمية . وهو ذخيرة أدبية حافلة بالنصوص القيمة شعراً ونثراً ... وهو موسوعة ثقافية عربية عامة »[٢] وأما من رأى أن مادة هذا الكتاب ليست مشرقية فحسب ولكنها عديمة الشخصية ـ أن صح التعبير ـ مجرد أخبار ...[٣] فهو لا يعدو أن يكون صيغة مختلفة لرأي الصاحب بن عباد الذي قصد به تهوين نتاج غرب العالم الاسلامي .

---

(١) مجلة اداب الرافدين ٧ / ٢٤٩

(٢) الادب الاندلسي ٢٦٢ .

(٣) الحب في التراث العربي ٢٤٥ .

المبحث الأول

الشعر والشعراء

موضوعات الشعر

١ ـ الغزل :

تستخدم في هذا الموضوع اصطلاحات أخرى الى جانب الغزل هي : النسيب . التشبيب . ويتحدد المفهوم في المعاجم العربية على النحو التالي :

الغزل : تحديث الفتيان الجواري . ومغازلتهن محادثتهن ومراودتهن . والتغزل التكلف لذلك . اما النسيب : فالتغزل بهن في الشعر . والتشبيب مثله يقال شبب بالمرأة اي قال فيها الغزل والنسيب ويشبب فيها اي ينسب بها[١]

يتحدث قدامة بن جعفر[٢] عن الموضوع فيحد الغزل على انه المعنى الذي اعتقده الانسان في الصبوة الى النساء . ونسب بهن من أجله . فكأن النسيب ذكر الغزل . والغزل المعنى نفسه . وهو التصابي والاستهتار بمودات النساء . والنسيب الذي يتم به الغرض هو ماكثرت به الأدلة على التهالك في الصبابة وتظاهرت فيه الشواهد على افراط الوجد واللوعة .

والفرق بين هذه الالفاظ الثلاث ـ لغوياً ـ محدود لكن الاستخدام الادبي يوشك أن يحدد بكل لفظة دلالة خاصة[٣]فالغزل هو الاستهتار بمودات النساء وتتبعهن والحديث اليهن .. وان لم يتعلق القائل منهن بهوى او بصبابة او هو اللهو مع النساء في الشعر او رقيق الشعر في النساء[٤]

---

(١) لسان العرب مادة ، غزل ، نسب ، شبب

(٢) نقد الشعر ١٤٠

(٣) الغزل في الشعر الجاهلي ص ١٣ ، (د . احمد محمد الحوفي ـ دار القلم بيروت د . ت)

(٤) معجم المصطلحات العربية ٢٦٥ (د . مجدي وهبة ، كامل المهندس ط ٢ مكتبة لبنان ١٩٨٤)

والتشبيب ما يقصد به الشاعر من ذكر المرأة في مطالع الكلام ومايضاف الى ذلك من ذكر الرسوم ومساءلة الاطلال توخياً لتعليق القلوب . او هو ذكر الشاعر ايام اللهو والشباب في شعره[١]

والنسيب أثر الحب وتبريح الصبابة فيما يبثه الشاعر من الشكوى . ومايعرض له من محاسن المرأة . قبل المفاجأة بالغرض من الكلام . او هو ذكر الشاعر خَلْق النساء واخلاقهن . ورقيق الشعر في النساء[٢].

والغزل في هذا العصر من أكثر أغراض الشعر الاندلسي تداولاً بين الشعراء اذ يؤلف النصيب الأكبر من دواوينهم بل من دواوين شعراء الاندلس عامة حتى ان الدكتور بدير متولي حميد عدّه احد الالوان الثلاثة التي تفوق بها الأندلسيون الى جانب شعر الطبيعة والشعر الحزين[٣]. وقد حدد قدامة بن جعفر سمة المحسن من الشعراء بانه الذي يصف من احوال مايجده مايعلم به كل ذي وجد حاضر او داثر .. حتى يكون للشاعر فضيلة الشعر[٤]

لقد كان للبيئة الاندلسية أثرها في ازدهار هذا اللون ونموه الى جانب كونه موضوعاً يتصل بالطبيعة الانسانية منذ القدم ولذلك فلا يكاد ديوان أندلسي يخلو من هذا الموضوع .

لقد وقفت دراسات كثيرة وبحوث غزيرة لدراسة أبعاده واتجاهاته[٥]. واكثر الدراسات التي تناولت الشعر الاندلسي بشكل عام او افردت في دراسة بعض شعراء الاندلس ممن تعرض لهذا الموضوع الذي يدور في مجمله في ثلاثة اتجاهات . عذري . وحسي . وتقليدي . وهي درجات يتفاوت الشعراء في النزوع اليها وسلوك سبيلها وتكاد تجتمع في ديوان ابن زيدون الذي يمكننا ان نعده ابرز الشعراء في هذا الموضوع اذ يحتل حوالي ثلث ديوانه ومن ابياته التي تمثل النزعة الاولى قوله :

---

(١) نفسه ٩٩

(٢) نفسه ٤١٠

(٣) قضايا اندلسية ١٣١

(٤) في النقد الادبي عند العرب ، ٢٠٩ (د . محمد طاهر درويش)

(٥) كتبت رسالتان للماجستير فيه ، الاولى ، للسيد صلاح يوسف عبد القادر بعنوان الغزل الاندلسي واتجاهاته ، جامعة الازهر القاهرة ١٩٧٨ ، والثانية للسيد انقاذ عطا الله بعنوان اتجاهات الغزل في عصر الطوائف جامعة بغداد . ١٩٨٧ .

له خُلُقٌ عذب وخَلْقٌ محسن وظرف كعرف الطيب او نشوة الخمرِ
يعلل نفسي من حديث بلذة كمثل المنى والوصل في عقب الهجرِ

وقد عرض الدكتور على عبد العظيم لدراسة الحوافز التي دعته الى النظم فيه فجعلها ثلاثة .

١ ـ التنفيس عن نفسه . فإن في كبت العاطفة مثاراً للقلق النفسي والاضطراب .
٢ ـ الظفر بثقة ولادة .. وسبيله في ذلك ارضاء غرورها أولاً وإطمئنانها له ثانياً فهو لذلك ينعتها بصفات تفردها على غيرها .
٣ ـ استدرار عطفها عليه لاسيما في حالتي العتب والجفاء كي تلين له وتستجيب الى هتافه وتبادله ماكان يحمله .

اما الدكتور شوقي ضيف فيحدثنا عن مراحل حبّ ابن زيدون لولادة فيراها ثلاثاً : نعيم . وشقاء . ويأس . وتمثل نونيته أروع قصائده في المرحلة الثانية . وهي التي باهى الشقندي (ت ٦٢٩ هـ) بها فقال : « لم يقل مع طولها في النسيب أرقّ منها »[١] وتبلغ ابياتها اثنين وخمسين بيتاً وتثور حولها الاساطير حتى قيل « ما حفظها احد الا مات غريبا »[٢] وقيل فيها ان انساناً لا يتم له الظرف ما لم يحفظها ولذلك شغف الشعراء بمعارضتها[٣] وتخميسها وتسديسها واحرزت مكانة سامقة في الادب العربي واليك هذه الابيات :[٤]

اضحى التنائي بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا
ان الزمان الذي مازال يضحكنا أنساً بقربهم قد عاد يبكينا
غيظ العدا من تساقينا الهوى . فدعوا بأن نغصّ . فقال الدهر « آمينا »
وقد نكون . وما يخشى تفرقنا فاليوم نحن . وما يرجى تلاقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضى علينا الأسى . لولا تأسينا

وقد أعجب المستشرق الاسباني غرسيه غومس بابن زيدون وعدّه اعظم شاعر قديم محدث أنجبه الاندلس وعلق على البيت السادس من نونيته بقوله : « وهكذا

---

(١) نفح الطيب ٣ / ١٩٤
(٢) ديوانه ١٣٩
(٣) ينظر : ابن زيدون ومعارضوه بحث الدكتور مختار الوكيل في مجلة الكتاب ، في العدد الخاص بالذكرى الالفية لميلاد ابن زيدون (١١ ـ ١٢) بغداد ١٩٧٥
(٤) ديوانه ١٤١

يختلط الابيض والاسود أحدهما بالآخر .. كما اختلطا في رقعة الشطرنج التي لعب ابن زيدون عليها دور حبه الخاسر »[١]

وتمثل المرحلة الثانية كذلك . قصيدته القافية المشهورة[٢]. التي ارسلها من الزهراء بعد فراره من قرطبة .

إنـــي ذكرتـــك بالزهراء مـــشـــتاقاً والافق طلق ووجه الارض قد راقا
وللنسيم اعتلال ــ في أصائله ــ كأنه رق لي . فأعتل اشفاقا
لا سكّن الله قلباً. عن تذكركم [٣] فلم يطرْ بجناح الشوق خفّاقا
فالآن ــ أحمد ما كنا لعهدكم ــ سـلوتـم . وبـقـيـنـا نـحـن عـشاقاً

والغزل عند شعراء هذا العصر يختلط بأغراض أخرى . منها وصف الطبيعة كما تجد في قصائد ابن زيدون وابن حمديس . الذي جاء احياناً بالغ الرقة فاتر العاطفة[٤] حيث يستهدف اتقان الصورة وعذوبة الموسيقى .

ويمتزج في وصف الخمرة كما تجده عند المعتمد بن عباد الملك الشاعر . وبالمديح كما عند ابن اللبانة في قصيدة في مدح مبشر العامري (٤٨٦ ــ ٥٠٨ هـ) أبدع فيها فجعل شطرها غزلاً وعجزها مدحاً حتى قال المراكشي « وهذا لم أسمع به لأحد » « وأن طريقته لم يسمع بها لمتقدم ولا متأخر »[٥]واول القصيدة :

وَضَحتْ وقد فضَحَتْ ضياءَ النَيِّرِ فكأنّما التحفتْ ببشر مبشر
وتبسمت عن جوهر فحسبته ما قلدته محامدي من جوهر
أذنبت فاستغفرتها . فجرت على عاداته في المذنب المستغفر

وهي في اثنين وعشرين بيتاً .

واذا كان المراكشي لم يسمع بمثل قصيدة ابن اللبانة . فقد فاتته مقطعة من خمسة ابيات نجدها عند المقرى وقد نص على ان القزاز قالها في مدح ابن صمادح (٤٣٣ ــ ٤٤٣ هـ) وخلط النسيب بالمديح ومنها قوله[٦]:

---

(١) الشعر الاندلسي ٤٩
(٢) ديوانه ١٣٩
(٣) الاصل « ذكركم » وفيه يكسر الوزن
(٤) مقدمة ديوان ابن حمديس ١٩
(٥) المعجب ٢١٢ ــ ٢١٤ وينظر شعر ابن اللبانة الداني ق ٢٩ .
(٦) النفح ٤ / ١٠٣

نفى الحب عن مقلتيَ الكرى ... كما قد نفى عن يديَّ العدم
فقد قر حبك في خاطري ... كما قر في راحتيك الكرمْ
وفرَ سلوّك عـــن فـــكرتـــي ... كما فر عن عرضه كل ذمْ
فابقى ليَ الحبَّ خالٌ وجَدٌ ... وابقى له الفخر خال وعمْ

والقصيدة لا تختلف كثيراً عن قصيدة ابن اللبانة المتقدمة . ولكنها أسبق تأليفا كما هو واضح من مدة حكم اللذين وجهت لهما القصيدتان .. فهل تأثر ابن اللبانة بابن القزاز ؟ ليست لدينا على ذلك أدلة في اثبات القضية او نفيها .

ومن هنا نستطيع ان نلمح مكانة المرأة في المجتمع الاندلسي . اذ لم تكن هملاً بل شغل الشاعر بها على نحو كبير . ويصلح ان يعد جل شعر طوق الحمامة في هذا الغرض . بوصفه من الشعر العفيف . واليك ابن خفاجة يستهل بعض قصائده فيقول[١] :

سجعتُ وقد غنّى الحمامُ فرجّعا ... وما كنتُ لو لا أن تغنى لأسجعا
ولم أدر ما أبكي أرسمَ شبيبةٍ ... عَفا ام مصيفاً من سُليمى ومَربعا
زمانٌ تقضّى غير ذكرى معاهدٍ ... تسوم حصاة القلب أن تتصدعا

ولا بد أن ننوه بتيار عربي جديد . وجدت جذوره في المشرق لكنه لم يلبث ان استقوى في بيئة الأندلس . أشار اليه ابن داود الاصبهاني في الباب الثامن من الزهرة تحت عنوان : « من كان ظريفاً فليكن عفيفاً[٢] » وقد أطلق عليه الدكتور احسان عباس تسمية « العفاف عند المقدرة[٣] » . ومن أبرز من نظموا فيه . ابو الوليد محمد بن حزم الاندلسي . وابو جعفر بن الابار . وادريس بن اليمان . وابن شهيد . وابن فرج الجياني (ت ٣٦٦ هـ) صاحب كتاب الحدائق . فمن ذلك قوله[٤] :

بأيهما انا في الحب بادي ... بشكر الطيف ام شكر الرقاد
سرى وأرادني أملي ولكن ... عففتُ . فلم أنل منه مرادي

---

(١) ديوان ابن خفاجة رقم ٩
(٢) الزهرة ١ / ١١٧ ـ ١٢٥
(٣) تاريخ الادب الاندلسي ـ ٢ / ١٥٧ ، وينظر الاتجاه الاسلامي ٢٨٢ وما بعدها
(٤) الجذوة ١٠٥ وينظر بحث الزميلة السيدة نزهة جعفر حسن ، ابن فرج الجياني حياته وشعره ، نشر في احد اعداد مجلة آداب المستنصرية العدد ١٦ ـ ١٩٨٨

ويعلل ذلك بقوله : « جريت من العفاف على اعتقادي » اما ابن الابار فمما قاله[١] :

واطعت سلطان العفاف تكرماً والمرء مجبول على عاداته

وقال[٢] :

وعصيت سلطان الهوى وأطعت سلطان العفاف

ومن نماذج الشعر العفيف ما وصل الينا من مقطعات شعر لابى الحسن على بن عمر بن أضحى الهمداني (ت ٥٣٩ هـ) حيث يقول[٣] :

يا ساكن القلب رفقاً كم تقطعه الله في منزل قد ظل مثواكا
يشيد الناس للتحصين منزلهم وانت تهدمه بالعنف عيناكا
والله والله ما حبي لفاحشة اعاذني الله من هذا وعافاكا

واما شعر المجون الذي كان قد استقوى لدى شعراء المشرق . فانه لم يكن له شأن يذكر في الشعر الاندلسي . وما جاء منه . « لم يكن يصور حقائق واقعة . وانما كانت الصور الغالبة عليه انه من نسج الخيال .. يراد به التندر والفكاهة »[٤] كما نجده في ابيات ابن حصن الاشبيلي التي يختمها بقوله[٥] :

لم أنل من كل ما فُهتُ به غير التمني
انما الشعر فكاها تٌ وحسبي حسن ظني

وقد استطاع ابن شهيد في مقابلته لجني ابي نواس في التوابع والزوابع أن يثبت أن المجون قد يكون فناً سليماً دون أن يضطر الى التبذل في الالفاظ والصور ... » وذلك واضح من قراءة ابياته العينية التي انشدها اياه[٦] .

إن شيوع الاتجاه الماجن ـ كما يرى الدكتور احسان عباس ـ لا يجعل منه طريقة حياة ... . لأنه لم يكن ينشد التبذل من أجل التبذل نفسه . فضلاً عن أن

---

(١) الذخيرة ٢ / ١ / ١٤٣
(٢) نفسه ٢ / ١ / ١٤٤
(٣) الحلة السيراء ٢ / ٢١٦
(٤) ابن بسام وكتابه الذخيرة (دار الفكر للنشر والتوزيع ـ عمان ١٩٨٤) . ١٤٦
(٥) الذخيرة ٢ / ١٦٢
(٦) الشعر الاندلسي بين الاتجاه الاخلاقي وطلب المتعة ص ٢٢ ، مجلة الثقافة العربية (٩) ايلول ١٩٧٥

احداً من الشعراء الاندلسيين لم ينفرد به على النحو الذي شُهر به شعراء اليتيمة امثال ابن الحجاج . وابن سكرة . وصريع الدلاء . وغيرهم[١] .

إن مجتمعاً مثل مجتمع الأندلس . وبيئة مثل بيئته ـ تعددت اجناسه وقومياته وأديانه ـ لا بد أن ينضح بما فيه . ويفصح عن أبعاده . حيث تترك البيئة الأندلسية بصماتها واضحة . وفي مجال الغزل تجلى هذا التأثر بيناً في قصائد ومقطعات شعرية لابي عبد الله بن الحداد . الذي اكثر من النظم في فتاة سماها « نويرة » كناية ثم أعرب عن اسمها الحقيقي « جميلة » أحبها في صباه . وقد احتفظ ابن بسام في ذخيرته بعشر قصائد ومقطعات في حوالي سبعين بيتاً . ووجه الطرافة فيها . أن ألح على ذكر شعائرها الدينية في اشعاره . وكان يتردد على الكنائس لاجلها ... استمع اليه . اماكن عبادتها . وعيدها . وكتابها ورجل الدين[٢] :

فان بي للروم رومية ... تكنس ما بين الكنيساتِ
أهيم فيها والهوى ضلة ... بين صوامع وبيعات
أفصح وحدي يوم فصح لهم ... بين الاريطي والدويحات
بموقف بين يدي أسقفٍ ... ممسك مصباح ومنساة
وقد تلوا صحف اناجيلهم ... بحسن الحانٍ وأصوات

ويذكر التثليث . ويقسم لها بالانجيل . ويجالس القس ليقص عليه قصته[٣] :

حديثك ما أحلى فزيدي وحدثي ... عن الرشأِ الفرد الجمال المثلث
واقسم بالانجيل أني لمائن ... وناهيك دمعي من محق محنّث
ولا بد من قصي على القس قصتي ... عساه مغيث المدنف المتغوث

ومن خصائص الغزل الأندلس ان نجد شعراءه يتغزلون بصفرة الشعر وزرقة العيون فشبهوا الاغصان والمياه بالعيون الزرق المجاذيف بالاهداب بجامع الزرقة على نحو ما يقول ابن خفاجة[٤] :

وغدت تخف به الغصون كأنها ... هدبٌ تحف بمقلة زرقاءِ

---

(١) نفسه ٢٢ ، وتنظر الامثلة على هذه النزعة في الاتجاه الاسلامي : ٢٩٥ ـ ٢٩٩
(٢) الذخيرة ١ / ٢ / ٧٠٥
(٣) الذخيرة ١ / ٢ / ٧٠٦
(٤) الذخيرة ١ / ٢ / ٧٠٧
(٥) ديوانه ٢٥٦

وكان بشّار يتطير من زرقة العيون فقال[1] :

وللبخيل على أمواله عللٌ زرق العيون عليها أوجه سود

واما جريرٌ فقد قتلته العيون السود :

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يُحيينَ قتلانا

٢ ـ المديح :

كانت العرب لا تتكسب بالشعر . وانما كان مدحهم شكراً للممدوح على يد أسداها لا يستطيع الشاعر اداء حقها الا بشعره[2]. وبين الاصل الذي نشأ عليه المديح في الشعر قبل الاسلام . وما نحن فيه ـ عصر الطوائف والمرابطين ـ حقبة زمنية طويلة . نلاحظ فيها ازدهار الموضوع ازدهاراً كبيراً . حيث كانت سوقه رائجة لوجود التنافس الشديد بين ملوك الطوائف . فكل كان يسعى في استقدام الشعراء . وانتقاء المتميزين فيهم . حتى بلغ الأمر ببعض الشعراء الا يمدح احداً منهم الا بمائة دينار .. وعلى هذا النحو تنافس الملوك في اكرام الشعراء.

يقترن الموضوع بموضوعات الشعر الأخرى . فالغزل اول مايستفتح به الشاعر قصيدته في المديح . وهو منهج تقليدي جرى عليه الشعراء قديماً . لكنه قد يمتزج به على نحو ماتقدم بنامع ابن اللبانة . وابن القزاز حين قسما البيت صدره غزلاً وعجزه مدحاً . كذلك يمتزج بوصف الطبيعة اذ كانت مجالسهم في الرياض الغن والحدائق الفيح .

ان تقاليد القصيدة المدحية بقيت على ماكانت عليه . في معانيها واسلوبها . فدارت حول الخصال الاربع الرئيسة . العقل والعفة والعدل الشجاعة ..[3] الا أن عدداً من المدائح امتزجت فيه طريقة القدماء بمذهب المحدثين . وانهما علا موصولين لا ينفصلان[4] .

ونحن ازاء كثرة المادحين والممدوحين نتساءل: أكان هذا الغرض تكسبياً محضاً. ام انه اختلط باعجاب الشاعر ذاته بشخص الممدوح ؟ الحق انه من التجني رمي المدح

---

(٢) ينظر قضايا اندلسية ٨٦ ، ١٨١

(٣) العمدة ١ / ٨٠ (٣) نقد الشعر ص ٦٩

(٤) ابن بسام وكتابه الذخيرة ص ١٢٩

وكان بشّار يتطير من زرقة العيون فقال[1] :

وللبخيل على أمواله عللٌ زرق العيون عليها أوجه سود

واما جريرٌ فقد قتلته العيون السود :

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يُحيينَ قتلانا

٢ ـ المديح :

كانت العرب لا تتكسب بالشعر . وانما كان مدحهم شكراً للممدوح على يد أسداها لا يستطيع الشاعر اداء حقها الا بشعره[2]. وبين الاصل الذي نشأ عليه المديح في الشعر قبل الاسلام . وما نحن فيه ـ عصر الطوائف والمرابطين ـ حقبة زمنية طويلة . نلاحظ فيها ازدهار الموضوع ازدهاراً كبيراً . حيث كانت سوقه رائجة لوجود التنافس الشديد بين ملوك الطوائف . فكل كان يسعى في استقدام الشعراء . وانتقاء المتميزين فيهم . حتى بلغ الأمر ببعض الشعراء الا يمدح احداً منهم الا بمائة دينار .. وعلى هذا النحو تنافس الملوك في اكرام الشعراء.

يقترن الموضوع بموضوعات الشعر الأخرى . فالغزل اول مايستفتح به الشاعر قصيدته في المديح . وهو منهج تقليدي جرى عليه الشعراء قديماً . لكنه قد يمتزج به على نحو ماتقدم بنامع ابن اللبانة . وابن القزاز حين قسما البيت صدره غزلاً وعجزه مدحاً . كذلك يمتزج بوصف الطبيعة اذ كانت مجالسهم في الرياض الغن والحدائق الفيح .

ان تقاليد القصيدة المدحية بقيت على ماكانت عليه . في معانيها واسلوبها . فدارت حول الخصال الاربع الرئيسة . العقل والعفة والعدل الشجاعة ..[3] الا أن عدداً من المدائح امتزجت فيه طريقة القدماء بمذهب المحدثين . وانهما علا موصولين لا ينفصلان[4] .

ونحن ازاء كثرة المادحين والممدوحين نتساءل: أكان هذا الغرض تكسبياً محضاً. ام انه اختلط باعجاب الشاعر ذاته بشخص الممدوح ؟ الحق انه من التجني رمي المدح

---

(٢) ينظر قضايا اندلسية ٨٦ ، ١٨١

(٣) العمدة ١ / ٨٠ (٣) نقد الشعر ص ٦٩

(٤) ابن بسام وكتابه الذخيرة ص ١٢٩

بجملته بهذا الوصف القاسي . فنجرد الشاعر من ذوويته . ونظرته الخاصة للناس . « فالمدح فن أصيل من فنون الشعر لايعيبه أن معظم الشعراء خرجوا به عن نهجة السوي الى التكسب والارتزاق »[1] . فاذا صدق هذا الوصف في بعضهم فهو ليس عاماً في جميعهم على نحو ماسنفصله فيما بعد .

ومن الشعراء الذين اخلصوا لممدوحيهم ابن اللبانة الداني حيث وصفه ابن بسام بقوله : « كان مائلاً لبني عباد بطبعه . فوفـد على المعتمد بعد نفيه وفادة وفاء . لا وفادة استجداء . وانقطع اليه انقطاع وداد لا انقطاع استرفاد »[2]

وكان ملوك الطوائف ازاء كثرة الشعراء بحاجة لتمحيصهم وابتلائهم . وانتقاء شاعرهم من متشاعرهم. فممن قصد دولة المعتمد بن عباد، في اشبيلية، ابن حمديس وابو العرب الصقليان . وكان قد ارسل لابي العرب خمسمائة دينار للتجهيز بها ليتوجه اليه . وارسل مثلها لابي الحسن الحصري القيرواني الكفيف . فاعتذر الاخير بخوفه من عبور البحر[3] .

ولنستمع الى ابن حمديس الصقلي يقص علينا قصة قدومه الى الاندلس وامتحان المعتمد اياه : « أقمت بأشبيلية لما قدمتها على المعتمد بن عباد مدة لا يلتفت اليَّ ولا يعبأ بي حتى قنطت لخيبتي مع فرط تعبي . وهممتُ بالنكوس على عقبي . فأني لكذلك ليلةً من الليالي في منزلي إذا بغلام معه شمعة ومركوب فقال لي : أجب السلطان . فركبت من فوري . ودخلت عليه فأجلسني على مرتبةٍ (فنك) وقال لي : إفتح الطاق الذي يليك . ففتحتهُ فأذا بكوة زجاج على بعد . والنار تلوح من بابيه وواقده يفتحها تارةً ويسدها أخرى ثم دام سدُّ أحدها وفتح الأخرى فحين تأملتها قال أجز :

أنظرهما في الظلام قد نجما

فقلت :

كما رنا في الدُّجنة الأسدُ

فقال :

يفتحُ عينيه ثم يطبقُهما

---

(١) ابن زيدون ، علي عبد العظيم ٣٧٩

(٢) الذخيرة ٢ / ١ / ٦١ ـ ٦٢

(٣) ابو الحسن الحصرى القيرواني ٣٠ (محمد المرزوقي ، والجيلاني بن يحيى ط المنار تونس)

فقلت :

فعل آمريء في جفونه رمد

فقال :

فابتزّه الدَّهرُ نورَ واحدةٍ

فقلت :

وهل نجا من صروفه أحد ؟

فاستحسن ذلك وأمرلي بجائزة سنية . والزمني خدمته[1] »

ويبدو أن « ديوان الشعراء » لم يكون موجوداً في جميع ممالك الطوائف . بل نجده في مملكة بني عباد التي اصطنعت اجواء للشعراء تدعوهم الى مملكتها . اصطناعاً .. وهؤلاء الشعراء الذين تدخل اسماؤهم في الديوان هم « شعراء منتمون » وهو نعت الدكتور احسان عباس .[2] تجري عليهم الاعطيات السنوية أو الشهرية .. فضلاً عن الجوائز الخاصة بقصائد تلقى في المناسبات .

ويذكر الدكتور احسان عباس ضربين آخرين من الشعراء فضلاً عن الأول :

١ ـ الشعراء الذين بلغوا أعلى مناصب الدولة . ومنهم ابن زيدون وابن عمار وابن عبدون . وكان يطلق على بعضهم لقب « ذو الوزارتين » .[3] اشارة الى رياستي الشعر والنثر . ترجم لعشرة منهم ابن خاقان كما أشرنا سالفاً .

٢ ـ الشعراء الجوالون . وهم الذين لا يلتزمون أميراً واحداً بل يقصدون أكثر من واحدٍ . وقد يطيب لهم التزام أمير معين . وهذه المرحلة غالباً ما تكون مرحلة سابقة أولية ثم يتحول الشاعر بعدها الى الانتماء والاستقرار في كنف أحدهم كما حصل لأبن عمار ولأبن اللبانة مثلاً .

ومن الشعراء المدَّاح من غير الطبقات الثلاث التي تقدمت آنفاً : شعراء جوالون دون أن يتخذوا الشعر وسيلة للتكسب . ومنهم ابن عيطون اللخمي الطليطلي . الذي قال الشعر متحبباً لا متكسباً » ووصف بأنه « جال على ملوك الطوائف »[4]. ولا بد أن نشير الى طبقة من الشعراء ترفعت عن التجوال . وانحازت عن المدح الى فنون

---

(١) بدائع البدائة ، ١٧٩ ، نفح الطيب ٢ / ٦١٦

(٢) تاريخ الادب الاندلسي ٢ / ٨٢ .

(٣) ينظر معنى الوزارة في التمهيد ـ انتشار اللغة العربية وخصائصها .

(٤) المغرب ٢ / ١٦

الشعر الأخرى . خضوعاً لمذهب ذاتي أو فلسفي أو ديني أمثال أبي اسحاق الالبيري . وابن العسال . وابن خفاجة الاندلسي .

وكان موقف النقد الاندلسي يعضد هؤلاء . حيث يتجلى لدى عدد من النقاد أمثال ابن بسام وابن حزم فقال الأول « ان الشعر لم أرضه مركبا . ولا اتخذته مكسبا . ولا ألفته مثوى ولا متقلبا .. رغبة بعز نفسي عن ذله .. »[1] كما انكروا على الشعراء الغلّو فيه ..

ويصور لنا ابن وهبون المرسي المذهب السائد في مديح الشعراء الاندلسيين . من أن الابداع في المديح مقرون بالعطاء . فحين أعجب المعتمد ببيت المتنبي في مدح سيف الدولة الحمداني :

اذا ظفرت منك العيون بنظرة أثاب بها معيي المطي ورازمه

قال ابن وهبون مرتجلا :

لئن جاد شعر ابن الحسين فأنما تجيد العطايا واللُّها تفتح اللها[2]

وحين ينشد بعض الحاضرين بيتين لأبن وهبون في مجلس المعتمد بن عباد هما :[3]

قلّ الوفاء فما تلقاه من أحد ولا يمرّ لمخلوق على بال
وصار عندهم عنقاء مغربةً أو مثل ما حدثوا عن الف مثقال

يرسل له ألف مثقال . فيأتيه الشاعر شاكراً . ليقول له المعتمد : « الآن حدث بها لا عنها .. » وفي رواية أخرى انه قال : « قد أمرنا لك بالف دينار . وبألف دينار أخرى تنفقها »[4]

ومن نماذج المديح قول ابن اللبانة يمدح المعتمد بن عباد وأبناءه الاربعة في قصيدة :[5]

تحللتَ حتى غابةِ الأسد الوردِ وأنزلتَ حتى ساكن الأبلقِ الفردِ
وجرَّدتَ دون الدينِ سيفك فأنثنى من النَّصر في حُلي من الدَّم في غمدِ
وحسبُ اللَّيالي أنها في زمانه بمنزلة الخيلانِ في صفحة الخدِ
توقَّدَ عن نارٍ من الحرب والقرى وقامَ على طودين للحلم والمجدِ

(١) الذخيرة ١ / ١ / ١٨ (٢) نفح الطيب (في رسالة فضائل الاندلس للشقندي) ٣ / ١٩٤ .
(٣) المعجب ١٥٩ . (٤) النفح ٣ / ٢٢٥ . (٥) ديوانه بتحقيقنا . ق ١٩ .

وجاءَت به الأيامُ تاجَر سؤددٍ يبيعُ نفيساتِ المواهبِ بالحمدِ
يغيثكَ في محل يُعينك في رِدى يَروعك في روع يروقك في بُرد
جمالٌ ، وإجمالٌ ، وسَبقٌ ، وصولةٌ كشمسِ الضُحى كالمزن كالبرقِ كالرعدِ

فمعاني المدح لا تخرج عن المعاني التي كان يمدح بها شعراء المشرق وهي صفات كثيراً ما تكون غير وصف الممدوح وإذا أردنا تأمل منهج الشاعر في القصيدة نجده يلجأ الى التقسيم ويبدع به . فهو يتوقد عن نارين من الحرب والقرى . ويقوم على طودين للحلم والمجد . وهو مغيث في المحلِ . معين في الردى . رائع في الروع ورائق في البرد وهو في جماله واجماله وسبقه وصولته كالشمس والمزن والبرق والرعد .

وهو في وصفه لخلال (صفات) المعتمد برفعه الى مصاف العظماء ... الا أنه لا يسلم من نقد ابن بسام في الذخيرة بعد أن يورد أبياتاً منها .

في نصرةِ الدِّين لا أعدمتَ نُصرته تأتي النَّصارى بما تأتي فتنخَدِعُ
تنيلُها نِعماً في طيِّها نِقَمٌ سيستضرُّ بها من كان ينتفعُ

ويقول فيه ابن بسام : « وهذا مدح غرورٍ وشاهد زور وملق معتفٍ سائلٍ . وخديعة طالب نائلوهيهات !!بل حلت الفاقرة بعد بجماعتهم » .(١)

ومن القصائد الذائعة لأبن عمار الأندلسي قوله يمدح المعتضد بن عباد الاشبيلي من قصيدة يهنئه فيها بعيد النحر . وفيها تأكيد على معنى العطاء والنوال وطلبهما منه . وهي قصيدة اثنى عليها النقاد . حتى صارت أشرد من مثل . وأجذب للأسماع من لقاء حبيب وصل .(٢) وقال المراكشي في بيت من ابياتها انه لم يسمع لمتقدم ولا متأخر بمثله .(٣) واليك بعض ابياتها :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العِنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره لما استردَ الليل منا العنبرا
وعلمت حقاً أن روضيَ مخصِبٌ لما سألت به الغمام الممطرا

---

(١) الذخيرة ٢ / ١ / ٢٤٩ . الفاقرة الداهية العظيمة تقصم فقار الظهر
(٢) النفح ٣ / ١٩٤ .
(٣) المعجب ١٧٦ . وينظر الشعر الاندلسي ص ٢٨٤ مقالة عبدالله كنون في مجلة المجمع العربي السوري ٣١ / ٣ / ١٩٥٦ وهذه الصيغة النقدية اصدرها كذلك حين أعجب برائية ابن اللبانة ..

ياسائلي ما حمصُ الا خاتمٌ ... أبصرتُ اسماعيل فيه خنصرا
من لا توازنه الجبال اذا احتبى ... من لا تسابقه الرياح اذا جرى
لا شيء اقرأ من شفار حُسامه ... إن كنت شبهت الكتائب أسطرا
وجهلت معنى الجود حتى زرته ... فقرأته في راحتيه مفسَرا

وهي طويلة في خمسة واربعين بيتاً .[1]

ولابد لنا أن نشير الى أن شعر المديح اصابه ما أصاب موضوعات الشعر الأخرى . بل كان هو في مقدمتها . من ضمور وضعف عما كان عليه من قبل وذلك بمجيء المرابطين .. لأنهم أقاموا دولتهم على الجهاد والحرب .. ولم يجعلوا الشعر غاية في استتباب سلطانهم وملكهم .

الرثاء :

من أشهر موضوعات الشعر نظماً . وأصدق ما يكون الشاعر فيه . فقد سئل البحتري عن سبب تفوق رثائه على مديحه فقال : « من تمام الوفاء أن يعلو على المدح الرثاء »[2]

لم يخرج شعراء الأندلس في مراثيهم عن « طريقة العرب » التي تدور في الغالب في أفلاك ثلاثة هي : التأبين . والندب . والعزاء ..

والمراد باولها .. في اصله ـ الثناء على الشخص حياً أو ميتاً . ثم اقتصر على الموتى فقط وفيه أشادة بالميت ومناقبه . لأنهم يبكون فيه النموذج في المروءة والرجولة والكرم والشجاعة والسماحة والشرف الرفيع . وكل الخلال الحسنة .

ويقصد بالثاني : النواح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية والالفاظ المحزنة التي تصدع القلوب . وتذيب العيون الجامدة . اذ يولول النائحون والباكون ويصيحون ويعولون مسرفين في النحيب والنشيج . وسكب الدموع .

وأما الثالث فالمراد به الصبر على كارثة الموت والمواساة بفقد الميت العزيز . طالما كان الموت سنة يخضع لها الكون . ولا محيص عنه . وقد جاء الاسلام فعمق هذا المفهوم ورسخ جذوره وجاءت الاشارة اليه في الآية الكريمة : « وبشر

---

(١) محمد بن عمار الاندلسي رقم ١ ص ١٨٩ .

(٢) الاغاني ٢١ / ٤٢ (ط دار الكتب المصرية) .

ياسائلي ما حمصُ الا خاتمٌ ... أبصرتُ اسماعيل فيه خنصرا
من لا توازنه الجبال اذا احتبى ... من لا تسابقه الرياح اذا جرى
لا شيء اقرأ من شفار حُسامه ... إن كنت شبهت الكتائب أسطرا
وجهلت معنى الجود حتى زرته ... فقرأته في راحتيه مفسَرا

وهي طويلة في خمسة واربعين بيتاً .[1]

ولابد لنا أن نشير الى أن شعر المديح اصابه ما أصاب موضوعات الشعر الأخرى . بل كان هو في مقدمتها . من ضمور وضعف عما كان عليه من قبل وذلك بمجيء المرابطين .. لأنهم أقاموا دولتهم على الجهاد والحرب .. ولم يجعلوا الشعر غاية في استتباب سلطانهم وملكهم .

الرثاء :

من أشهر موضوعات الشعر نظماً . وأصدق ما يكون الشاعر فيه . فقد سئل البحتري عن سبب تفوق رثائه على مديحه فقال : « من تمام الوفاء أن يعلو على المدح الرثاء »[2]

لم يخرج شعراء الأندلس في مراثيهم عن « طريقة العرب » التي تدور في الغالب في أفلاك ثلاثة هي : التأبين . والندب . والعزاء ..

والمراد باولها .. في اصله ـ الثناء على الشخص حياً أو ميتاً . ثم اقتصر على الموتى فقط وفيه أشادة بالميت ومناقبه . لأنهم يبكون فيه النموذج في المروءة والرجولة والكرم والشجاعة والسماحة والشرف الرفيع . وكل الخلال الحسنة .

ويقصد بالثاني : النواح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية والالفاظ المحزنة التي تصدع القلوب . وتذيب العيون الجامدة . اذ يولول النائحون والباكون ويصيحون ويعولون مسرفين في النحيب والنشيج . وسكب الدموع .

وأما الثالث فالمراد به الصبر على كارثة الموت والمواساة بفقد الميت العزيز . طالما كان الموت سنة يخضع لها الكون . ولا محيص عنه . وقد جاء الاسلام فعمق هذا المفهوم ورسخ جذوره وجاءت الاشارة اليه في الآية الكريمة : « وبشر

---

(١) محمد بن عمار الاندلسي رقم ١ ص ١٨٩ .

(٢) الاغاني ٢١ / ٤٢ (ط دار الكتب المصرية) .

الصابرين . الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون . اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة . واولئك هم المهتدون »[١]

ويرى ابن رشيق ان لا فرق بين المدح والرثاء سوى ان الاول في حي والثاني في ميت وهو تقدير عام قد يصح في مفهوم التأبين ، أما مفهوم الندب والعزاء فلا ...

ويمكننا ان نشير الى بعد رابع يضاف الى ما تقدم ... وذلك هو الحديث عن فلسفة الحياة والموت والبقاء والفناء . يعرض له الشعراء في قصائدهم . فتأخذ طابعاً متميزاً على نحو ما نجد في قصيدة المعري الدالية . الذائعة الصيت : « غير مجد ... »

وأكثر ما يكون الرثاء في الاقارب . فقد رثى ابن حمديس أباه . وزوجته وجاريته . ورثى الحصري القيرواني ابنه عبدالغني المتوفى سنة ٤٧٥ هـ في ديوان سماه (اقتراح القريح) في حوالي الفين وستمائة بيت . في حروف الهجاء . اذ كان ابن تسع سنين فإنه كان ملازماً لقراءة القرآن بالكتاب . يحسن ترتيله ويفرق بين القراءات والروايات . ومن ديوانه المذكور آنفاً قوله على روي الهمزة :[٢]

حاشاك من نار على الأحشاء ... يزداد ضِعفاً حرّها بالماء
عَزّيتني فيما ترى . وعَزوتني ... للصّابرين ولات حين عزاء
من لي بأجر الصّابرين وأعظمي ... موهونة من أعظم الارزاء
أودى الذي في وجهه ويمينه ... ماءان . ماء حيا . وماء حياء
لو كان كلّ ابنٍ نَجيباً مثلَه ... منعَ الإباءُ بكا على الأبناء
تسعى الرّجال فلا تنال بحرصها ... ما نال ـ في تسع ـ من العلياء
سالتْ حشاشة نفسه من أنفه ... فشهدت منه مصرع الشهداء

ومن الاتجاهات المتميزة . مانحاه ابن وهبون (ت ٤٨٤ هـ) في رثائه لاستاذه ابي الحجاج الاعلم الشنتمري في ذخيرته فقال : « هذا مذهب فلسفي قلما عرج عليه عربي . وانما خرج اليه المحدثون من الشعراء . حين ضاق عليهم منجم الصواب وعدوا رونق كلام الاعراب . فاستراحوا الى هذا الهذيان . استراحة الجبان »[٣].

---

(١) تنظر هذه المفاهيم في الرثاء ص ١٢ ، شوقي ضيف ، سلسلة فنون الأدب العربي الفن الفنائي العدد (٢) .
(٢) ابو الحسن الحصري ٢٧٣
(٣) الذخيرة ٢ / ١ / ٤٨٠

ومذهب ابن وهبون ـ كما هو واضح ـ مشابه لمذهب المتنبي والمعري . يقول ابن وهبون[1] :

سَبَقَ الفناء فما يدوم بقاء ... تفنى النجوم وتسقط العلياء
نفسي وجسمي إن وضعتهما معا ... آلٌ يذوبٌ وصَخرةٌ خلقاءُ
إنا لنعلم ما يُراد بنا فلِمْ ... تَعيا القلوب وتغلب الاهواء
لِمَ ينكر الانسان ما هو ثابت ... في طبعه لو صحّت الآراء
ونظير موت المرء بعد حياته ... أن تستوى من جسمه الأعضاء
طيف المنايا في أساليب المنى ... وعلى طريق الصحة الادواء

فهو يرى ان الحياة والموت . او البقاء والفناء أمران من طبيعة الاشياء . ومن سنن الكون . والحياة بنت الموت . والموت ابن الحياة . ويقول من القصيدة نفسها : ـ

ما النفس الا شعلةٌ سقطت الى ... حيث استقل بها الثّرى والماء
كذبتْ حياة المرء عند وجودها ... وُجد الحمام وكان منه الداء

فقد جعل ابن وهبون النفس شعلة يحملها عنصران . هما الماء والتراب . ويرى أن حقيقة الموت ماثلة في الحياة . فهما متلازمان . وممن نسج على هذا المنوال . واغترف من هذا الوادي . ابو عامر الشنتريني من قصيدته التي يقول فيها :

يالقومي دفنوني ومضوا ... وبنوا في الطين فوقي ما بنوا
ليت شعري اذ رأوني ميتا ... وبكوني ايَّ جزأي بكوا
كيف ينعون نفوساً لم تزل ... قائمات بحضيض وبجو

وقد اراد الشاعر بالجزأين . الجسم والنفس . وفي هذه القصيدة يرى الدكتور احسان عباس . انها أدق أخذاً بالمشكلة الفلسفية والمصطلح الفلسفي . الا انها أدنى في المستوى الشعري من قصيدة عبدالجليل[2].

---

(١) نفسه ٢ / ١ / ٤٧٨

(٢) تاريخ الادب الاندلسي ٢ / ١٢٩ .

ويشير الدكتور احسان عباس الى لون آخر من الوان الرثاء يسميه البكاء على زوال الرقة والجمال[1] وهو يتصل غالباً ببكاء الزوجة التي فارقها الشاعر بطلاق او موت ومن النوع الاول بكاء ابن هند الداني بقصيدته الكافية التي منها قوله[2]

أبديت سِرّي مذ كتمتُ سُرَاك وعَصيتُ صَبري مذ أطعتُ هَواك

والقصيدة تصور مشكلة اجتماعية. نجمت عن يمين أكدها الشهود. ووافقت هوى من أهل زوجته والنظرة لمثل هذه الحادثة تدل على عدم تمكن المرأة من تحكيم رأيها.

ومن الشعراء الذين رثوا زوجاتهم. ابو اسحاق الالبيري الذي عرف بمنحاه الزهدي والاعمى التطيلي الذي رثى زوجته (آمنة) وهو متميز في رثائه اياها. ويبدو ان براعته وملكته الصناع احتفلت بهذا الباب اذ له اكثر من قصيدة في رثاء نساء المرابطين. وقد تقدمت الإشارة الى رثاء ابن حمديس (جوهرة) وتابع هؤلاء آخرون منهم ابن الزقاق (ت ٥٣٠ هـ) يرثي زوجته (درّة). ومن شعراء الموحدين ابو عامر بن الحمارة وابن جبير الرحالة الأندلسي الذي نظم ديواناً كاملاً عن (ام المجد) سماه «نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح» .... والاتجاه يدل على مكانة المرأة الأندلسية زوجة وصلاحها وفلاحها من كونها زوجة. واليك هذه الابيات للاعمى التطيلي[3]:

ونبئت ذاك الوجه غيره البلى على قرب عهد بالطَّلاقة والبِشر
وما فعلت تلك المحاسن في الثرى فقد ساء ظني بين أدري ولا أدري
آأمنُ إن اجزعْ عليك فإنني رُزئتك أحلى من شبابي ومن وفري
أأمنُ لا والله مازلت موفياً بينك لو اني اخذت له حذري
ونبئت ذاك الجيد اصبح عاطلاً خذي أدمعي ان كنت غضبى على الدر
خذي اللؤلؤ الرطب الذي لهجوا به محارته عيني ولجته صدري

والقصيدة طويلة في الديوان تنيف على خمسين بيتاً.

---

(١) نفسه ٢١٩ وما بعدها، ويقابله البكاء على العظمة، الذي هو رثاء المدن والممالك الزائلة وسيأتي الحديث عنه.
(٢) الذخيرة ٢ / ٢ / ٨٩٧
(٣) ديوانه رقم ٢٤.
٢ / ١٢٩

واذا كانت الاتجاهات الطريفة تستوقفنا . والتيارات الجديدة تستهوينا وتجعلنا نتتبعها ونسبر اغوارها . فان مما يذكر بيائية مالك بن الريب التي رثى فيها نفسه بقصيدة التي مطلعها[١] :

الاليت شعريْ هل ابيتن ليلة بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا

ابيات ابن شهيد التي قالها في مرض موته وكان قد عزم على الانتحار سنة ٤٢٦ هـ . وفيها لوعة شديدة وحرقة مريرة حيث يقول[٢] :

انوح على نفسي وندب نبلها اذا انا في الضراء أزمعتُ قَتْلَها
رضيتُ قضاءَ الله في كلّ حالةٍ عليَ وأحكاماً تيقَنتُ عَدْلَها
أظلّ قعيد الدّار تَجنبني العَصا على ضعفِ سَاقٍ أوهنَ السَقم رِجلها
وأنعى خسيسات ابن آدم عاملاً براحة طفل احكم الضر نصلها

ومن ابواب الرثاء التي اكثر الشعراء النظم فيها . رثاء الملوك والقادة وقد اختلطت بعض اشعارهم في موضوع رثاء المدن والممالك حيث رثوا المعتمد بن عباد بعد زوال ملكه وابن الافطس كذلك . وبين ايدينا قصيدة لابن سوار الاشبوني يؤبن فيها أمير المسلمين ابي يعقوب يوسف بن تاشفين (ت ٥١٠ هـ) ذكر ابن بسام انه انشدها على قبره يقول فيها :[٣]

ملك الملوك وما تركت لعامل عملاً من التقوى يشارك فيه
يايوسف ما انت الا يوسف والكلّ يعقوبٌ بما يَطويه
اسمع أمير المسلمين وناصر الدّ دِين الذي بنفوسنا نفديـه
جُوزيتَ خيراً من رَعيتكَ التي لم تَرضَ فيها غيرَ ما يُرضيه
في كلّ عامٍ غزوةٌ مبرورة تردى عديدَ الرّوم او تُفنيه
تصل الجهاد الى الجهاد موفقاً حَتمَ القضاء بكلّ ما تقضيه
انا لمفجوعون منك بواحدٍ جُمعتْ خصالُ الخلق أجمع فيه

وواضح من أبيات القصيدة حفولها بالمعاني الاسلامية . والقيم الدينية في رثائه . لما عرف عن يوسف من تمسكه بهذه القيم والمعاني . وهي في ستة عشر بيتاً ..

---

(١) شعراء امويون ١ / ٤١ (٢) ديوانه رقم ٥٥ (٣) الذخيرة ٢ / ٢ / ٨٢١ ، البيان المغرب ٤ / ٤٧

ومن رثاء العلماء لابي عبدالله جعفر بن أبي طالب القيسي قالها في رثاء ابي مروان بن سراج العالم وأولها :[1]

انظر الى الأطواد كيف تزول ولحالةِ العلماء كيفَ تحول ؟
يَهوى الفتى طول البقاءِ مؤملاً ولهُ رحيل ليس منه قفـولُ

ومن رثاء القضاة قصيدة غانم بن وليد في رثاء القاضي ابي علي بن حسون ومطلعها[2] :

الموت أعرب في أصح مساق ان المنية شمَّرت عن ساق

وهي طويلة أورد منها ابن بسام اكثر من عشرين بيتاً .

٤ ـ الزهد والتصوف(*)

المراد بالزهد لغة[3] : الرغبة عن الشيء . خصص بما يكون الرغبة فيه عن الدنيا وفي الاصطلاح . ترك المباح المحبوب المقدور عليه لاجل الله فتارك المحظورات لا يسمى زاهداً . وتارك مالا يؤبه به لا يسمى زاهداً . وتركه على سبيل السخاء والفتوة واستمالة القلوب في الثناء . لا يكون زاهداً . أذ الذكر والثناء وميل القلوب . ألذ وأحب من المال . ومن ترك ما لا يقدر عليه لا يكون زاهداً .

ودراسة الزهد والتصوف في الأندلس ترتبط بأصولها الاولى في المشرق . على نحو ما يتصل الفكر الأندلسي بجملته . باخيه المشرقي فدراسة الزهد والتصوف لا تكون بمعزل عن تياراته في المشرق .

اختلف الدارسون في اصل مفهوم « التصوف » فمنهم من رأى انه من الصفاء والصفو . لصفاء علاقاتهم بالله وصفو قلوبهم . وقيل من الصُفة وأهلها زهاد المهاجرين والأنصار . في المسجد النبوي وان كانت النسبة اليهم تأتي على (الصُفيَ »

---

(١) المغرب ١ / ١٠٨ (٢) الذخيرة ١ / ٢ / ٦٦ ـ ٦٨

(*) ينظر الاتجاه الاسلامي في الشعر الاندلسي ١٤٥ وما بعدها ، كذلك دائرة المعارف الاسلامية (مادة تصوف ، نشأة التصوف الاسلامي ص ٩ ، الحياة الروحية في الاسلام ٨٥ ـ ٩١ ، تاريخ التصوف في الاسلام ١ / ٢٦٩ ـ ٢٨٦ .

(٣) لسان العرب ، مادة « زهد »

ومن رثاء العلماء لابي عبدالله جعفر بن أبي طالب القيسي قالها في رثاء ابي مروان بن سراج العالم وأولها :[1]

انظر الى الأطواد كيف تزول ولحالةِ العلماء كيفَ تحول ؟
يَهوى الفتى طول البقاءِ مؤملاً ولهُ رحيل ليس منه قفـولُ

ومن رثاء القضاة قصيدة غانم بن وليد في رثاء القاضي ابي علي بن حسون ومطلعها[2] :

الموت أعرب في أصح مساق ان المنية شمَّرت عن ساق

وهي طويلة أورد منها ابن بسام اكثر من عشرين بيتاً .

٤ ـ الزهد والتصوف(*)

المراد بالزهد لغة[3] : الرغبة عن الشيء . خصص بما يكون الرغبة فيه عن الدنيا وفي الاصطلاح . ترك المباح المحبوب المقدور عليه لاجل الله فتارك المحظورات لا يسمى زاهداً . وتارك مالا يؤبه به لا يسمى زاهداً . وتركه على سبيل السخاء والفتوة واستمالة القلوب في الثناء . لا يكون زاهداً . أذ الذكر والثناء وميل القلوب . ألذ وأحب من المال . ومن ترك ما لا يقدر عليه لا يكون زاهداً .

ودراسة الزهد والتصوف في الأندلس ترتبط بأصولها الاولى في المشرق . على نحو ما يتصل الفكر الأندلسي بجملته . باخيه المشرقي فدراسة الزهد والتصوف لا تكون بمعزل عن تياراته في المشرق .

اختلف الدارسون في اصل مفهوم « التصوف » فمنهم من رأى انه من الصفاء والصفو . لصفاء علاقاتهم بالله وصفو قلوبهم . وقيل من الصُفة وأهلها زهاد المهاجرين والأنصار . في المسجد النبوي وان كانت النسبة اليهم تأتي على (الصُفيَ »

---

(١) المغرب ١ / ١٠٨ (٢) الذخيرة ١ / ٢ / ٦٦ ـ ٦٨

(*) ينظر الاتجاه الاسلامي في الشعر الاندلسي ١٤٥ وما بعدها ، كذلك دائرة المعارف الاسلامية (مادة تصوف ، نشأة التصوف الاسلامي ص ٩ ، الحياة الروحية في الاسلام ٨٥ ـ ٩١ ، تاريخ التصوف في الاسلام ١ / ٢٦٩ ـ ٢٨٦ .

(٣) لسان العرب ، مادة « زهد »

وقيل انها من الصَف الأول لصلاتهم فيه او الصفة لاتصافهم بالاخلاق الحميدة ومن الكلمة اليونانية « صُوفيا » وتعني الحكمة والارجح ان التصوف مصدر الفعل الخماسي تصوف،الذي هو من الصَوف .

ويتشابه مفهوما الزهد والتصوف احياناً . ويأتي التصوف مرحلة تالية للزهد في احيان أخرى . ويتجلى الفرق بينهما في بعد زمني ومن ذلك يقول ابن خلدون : « وقد كان ذلك (الزهد) فاشياً في الصحابة والسلف ولما عمّ الاقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده . وجنح الناس الى مخالطة الدنيا . اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية او المتصوفة[١] ويرى أحد الباحثين ان التصوف أسمى درجات الزهد . وهو الزهد في اسمى درجاته[٢] .

ان التصوف الاسلامي نتاج تلقائي منفصل عن كل العوامل الدينية والفلسفية الاجنبية والاتفاق الحاصل بين عقيدتين لا يعنى أن احداهما أخذت من الأخرى بل هو يعني ان كلتيهما قد تكونت نتيجة لسبب واحد[٣] مع ان هذا الاتفاق ليس كاملاً بل جزئياً .

ويرى المستشرق الالماني شاخت من النظريات التي قيلت حول اقتباس المسلمين التصوف من اصول اجنبية أنّها مجرد افتراضات[٤]

لقد ولد الزهد الاندلسي في احضان الثورة على الحكم الربضي اذ كان الاتقياء ينظمون اشعار الزهد ويتغنون بها في الليل . ويضمنونها التعريض به فضلاً عن عوامل بيئية ذووية . منها الحياة اللاهية في المدن والانقياد لدواعي التقوى في النفس ايام الشيخوخة وقوة التيار المشرقي وذيوع اشعار ابي العتاهية[٥] ويمكننا ان نعد مذهب ابن مسرة عاملاً من عوامل استقواء حركة الزهد في الاندلس .

يقف الدارس امام عدد كبير من الكتب والمصنفات التي يتضح منها ان هذا الاتجاه أصيل في الاندلس . ولا يتسع المقام لسرد قائمة بهذه المؤلفات[٦]، ولم

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٢ / ١٠٦٣

(٢) مظاهر الشعوبية د . نبيه حجاب ص ٤٣

(٣) الحياة الروحية في الاسلام ٦٤ ـ ٦٥

(٤) تراث الاسلام ٢ / ٢٢٧

(٥) تاريخ الادب الاندلسي ، ١ / ١١٦ ـ ١١٧

(٦) الاتجاه الاسلامي في الشعر الاندلسي ١٥٤

يقتصر الامر في حركة الزهد على الرّجال بل تعداه الى النساء ، اذ تأتي اسماؤهن بكثرة في كتب التراجم الأندلسية لاسيما الصلة لابن شكوال ، والتكملة لابن الابار ، يذكر المستشرق الفرنسي بروفنسال أن نساء الامراء « كل واحدة منهن أقامت في قرطبة مسجداً وسبيلاً يحمل اسمها[١] » .

ان شعر الزهد والتصوف في الاندلس يحتاج الى دراسة مستقلة وشعراء هذا الاتجاه منهم المقل ، ومنهم المكثر ، ومنهم من اقتصر على الزهد ، ومنهم من عالجه موضوعاً ضمن موضوعات شعرية ويأتي في مقدمة شعراء الأندلس خاصة وشعراء العرب عامة .

لم تكن دعوته سالبية الطابع[٢] ، بل اتجه نحو المشاركة الفعلية لمشكلات الاندلس القائمة ، فمن ذلك دعوته الى خلع الوزير اليهودي ابن النغريلة ، والاقتصاص منه في قصيدته النونية ، التي كانت بمثابة البيان الاول للثورة على الامير بلقين بن باديس ومنها قوله[٣] :

الا قل لصنهاجة اجمعين ... بدور الندى واسد العرين
لقد زلّ سيّدكم زلّةً ... تقَر بها أعين الشامتين
أبا ديسُ أنتَ امرؤ حاذقٌ ... تصيب بظنك نفس اليقين
وقد أنزل الله في وحيه ... يُحذّر عن صُحبة الفَاسقين
ويضحكُ منا ومن ديننا ... فإنا الى ربنا راجعون
فبادرْ الى ذَبحهِ قُربةً ... وضَحّ به فهو كبش سمين

ولقد استطاع الالبيري أن يصل بشعره الزهدي في الأدب العربي ـ لا في الاندلس فحسب الى قمة[٤] .

انه يقرع في نفوس الغارقين في ذنوبهم : الساربين وراء شهواتهم ناقوس « النار » التي تغلي بأصحابها .. فيصورهم مستغيثين معترفين نادمين ... لو تقبل توبتهم[٥]

ويل لاهل النار في النار ... ماذا يقاسون من النار

---

(١) الشرق الاسلامي والحضارة العربية الأندلسية ٢٤
(٢) تاريخ الادب الاندلسي ٢ / ١٣٦ .
(٣) ديوانه ٩٦ .
(٤) تاريخ الادب الاندلسي ٢ / ١٣٦
(٥) ديوانه ٩٠

تنقدّ من غيض فتغلي بهم كمرجل يغلي على النار
وكلهم معترف نادم لو تقبل التوبة في النار

ويعرض لاصناف العذاب الذي تحتويه ، ثم يدعو لاخذ الحذر والتحصن بذكر الله ويفضي الخوف الى انه لو عقل الامر ... اذن لم تكتحل عيناه بالنوم ، ولم ترقأ دموعه ولم يرد ماءً ولا ساغ له نعيم الدنيا وسرورها ، في ثمانية وثلاثين بيتاً .

لقد بنى قصيدته على « النار » وبنى اخرى على لفظ الجلالة « الله » فجاءت على نحو من « التسبيحة » ثلاثاً وخمسين حبة في مناجاة عذبة وهيام روحي[١] :

يا أيها المغترّ بالله فرّ من الله الى الله
ولذ به واسأله من فضله فقد نجا من لاذ بالله
وقم له ، والليل في جنحه فحبذا من قام لله
واتل عن الوحي ولو اية تكس بها نوراً من الله

والقصيدتان الآنفتان بمستوى فني واحد ، يخرج فيهما على نظام القافية بالتزام لفظتي « النار » و « الله » في كل منهما وتكرارها في ضرب كل بيت ، ويختار لها بحر السريع بتفعيلاته المتقاربة واجزائه المتلاحقة حيث تلهث انفاسه فيهما ، ويلحف في طلبه ، فيلقي الروع في قلوب الغافلين تارة بلفظ الجلالة (الله) واخرى بلفظة (النار) فتنهال اللفظتان كالمطارق المتوالية على أذن السامع ، ويبقى صداها لامد بعيد ، وتكرار اللفظة في هذا الموضع « الحاح على جهة هامة من العبادة يعنى لها الشاعر اكثر من عنايته بسواها[٢] .

وواضح ان تيار الزهد والتصوف كان قوياً ، والنتاج الذي كتب فيه كان غزيراً ولم يقتصر على الشعر فحسب بل تجاوزه الى النثر[٣] .

---

(١) الديوان : ٦٥

(٢) ملامح النقد السياسي والاجتماعي في الشعر الاندلسي ، مجلة آداب الرافدين العدد ١٢

(٣) كتبت رسالة ماجستير بعنوان « ادب الزهد في الاندلس في عهد الطوائف والمرابطين » جامعة بغداد ١٩٨٥ . للباحثة حميدة صالح .

الشعراء

ابن دراج القسطلي

(٣٤٧ ـ ٤٢١ هـ)

اولاً : حياته :

هو احمد بن محمد بن العاص بن دراج ، يكنى بابي عمر ، ويلقب بالقسطلي ، وقسطلة ، بلدة تابعة لجيان قرب قلعة بني سعيد ، أشارت اليها المصادر الاندلسية ، والمشرقية ،[١] ويرى الدكتور محمود على مكي ، أنها أرجح المواضع الثلاثة التي عرفت في الاندلس باسم « قسطلة » ، ولمكانة أسرة الشاعر عرفت المدينة بهم ، ونُسبت اليهم ، فسميت باسم « قسطلة دَراج » ، تنتمي أسرته الى قبيلة صنهاجة البربرية ... ولكننا لا نجد أيَّ أثر لنسبه في قصائده الكثيرة .. والرّاجح أنها كانت شأن الاجناس ، والقوميات التي في الاندلس ، قد انصهرت في بوتقة الأندلس ولعله مما يلفت النظر الا يتوجه ابن دراج ، وهو الشاعر المادح في قصائده لمدح ملوك مملكة بني زيري الصنهاجيين في غرناطة على الرغم من انتسابه لهم ، ولذلك فخرت الاندلس به وازدهت لنبوغه ولقبته بمتنبي الاندلس ، واغفلته ممالك البربر في الاندلس والمغرب .

ولد سنة ٣٤٨ هـ في عهد عبد الرحمن الناصر وعاش طفولته وصباه في عهد الحكم المستنصر ، الذي عرف عصره بالتألق العلمي ، وبلغت الاندلس فيه عصرها الذهبي ، فقد روي أن الحكم أنشأ سبعةً وعشرين مكتباً لاولاد الضعفاء والمساكين ، منها ثلاثة حول المسجد الجامع والباقي في أرباض قرطبة[٢] ، وهي صورة رائعة لاهتمام حكام الاندلس بالتعليم وفي مثل تلك الظروف نتوقع أن يكون شاعرنا قد أدرك نصيبه ، وبلغ مأرب أسرته من الثقافة الرصينة التي انعكست على شاعريته بشكل واضح ، وانتهت به ليكون أبرز شعراء الأندلس في عصره .

ولاشك انه جَمَعَ الى تلك الثقافة ملكَة متميزة ، وشاعرية اغدقت ثمارها ، منذ عهد مبكر ، ولم يصل الينا من قصائده الأولى شيء ، اذ أن أقدم قصيدة وصلت الينا ، تمثله في مرحلة من نضج الشاعرية ، وهي تتصل بمدح المنصور العامري سنة

---

(١) ينظر حياته ، في مقدمة الديوان ١٩ ـ ٨٠

(٢) البيان المغرب ٢ / ٢٤١

٣٨٢ هـ . وقد ذكر الحميدي انه قالها يعارض قصيدة لصاعد البغدادي ، ومطلعها :[١]

أضاءَ لها فجر النُهى فنهاها عن الدَّنفِ المضْنى بحرٌ هَوَاها

وهي قصيدة طويلة تجاوزت خمسين بيتاً . جاءت في الديوان مستهلة بعبارة « وهي أول ما أنشده » ويوضح الحميدي[٢] ذلك ، على أنها أول شعر مدح المنصور به ، والقصيدة تجري على تقاليد الشعر العربي ، حيث يستهلها بمقدمة غزلية ، ثم ينتقل بعدها الى وصف الرحلة الى الممدوح ، ثم يحدثنا عن آثار تلك الرّحلة حديثاً وجدانياً مؤثراً . لأنه غادر مدينته « قسطلّة » الى قرطبة ، وخلف فيها أفراد اسرته ، وفي ذلك يقول[٣] :

ولله عَزمي يومَ ودَّعت نحوه نفوساً شجاني بينها وشجاها
وربَّة خِدرٍ كالجمان دُموعها عزيزٌ على قَلبي شطوطُ نَوَاها
وبنتُ ثمانٍ مايزالُ يرَوعُني على النَّأى تذكاري خفوق حشاها

ويصور نزاع اسرته اليه ، وشدة تعلقه بها ، وتستغرق منه هذه المقدمات جل أبيات القصيدة لينتهي الى مدح المنصور في عشرة أبيات فقط ويبدو أن القصيدة كانت لها أصداء لدى شعراء العصر ممن قرَبهم المنصور بن ابي عامر فساءت به الظنون ، واتهموه في قصيدته انه منتحل ، لا يستحق أن يثبت في ديوان العطاء ، ثم استحضره المنصور وابتلاه ، فبرَع وسطع ، ونسخ تلك الأراجيف والدعوات الباطلة ، وأصبح مذ يومها في ديوان الشعراء[٤] . وفي ذلك انشأ ابن دراج قصيدته البائية التي جاءت في اربعة وستين بيتاً ، ومطلعها :[٥]

حَسبي رِضاك من الدهر الذي عَتَبا وجودُ كفّيك للَحظ الذي انقلبا
من بعد ما أضرَم الواشونَ جاحمةً كانتْ ضُلوعي وأحشائي لها حَطَباً
ودسسوا لي في مثنى حبائلهم شنعاءَ بتّ بها حرّان مكتئبا

---

(١) ديوانه ق ٢ ، جذوة المقتبس ١١١

(٢) الجذوة ١١٠

(٣) ديوانه ٢ / ٢٥ ـ ٢٧

(٤) يشير الدكتور محمود على مكي الى الوهم الذي وقع فيه ابن الخطيب في الاحاطة ٢ / ١٠٦ ـ ١٠٧ حيث زعم ان الشاعر كان احد الشعراء الاربعين الذين رافقوا ابن ابي عامر في غزوته المشهورة الى برشلونة ٣٧٤ . هـ ، مقدمة ديوان ابن دراج ، ٢٨ ـ ٢٩

(٥) ديوانه ١٠٠ / ١ ، ٢٠ ـ ٢٢

حتى هُززت فلا زَندُ القريض كبا فيما لدي ولا سيف البديه نَبَا
وأشرقت شاهداتُ الحقّ تنشر لي نوراً غَدَتْ فيه أقوال الوشاةُ هبا

وفيها يشير الى محنته في التهمة التي وجهت ، ويردّ رداً عنيفاً على المرجفين به ، وهو في ذلك لا يختلف عن كبار الشعراء أمثال امرىء القيس والأعشى[١] . وهو في قصيدته كما لاحظنا لا يستهلها بمقدمة غزلية ، بل بلغت به سورة الغضب الى أن يباشر موضوعه على نحو ما رأينا . ويتضمن الدّيوان عدداً كبيراً من قصائده في مدح المنصور ومن بعده ولده المظفر ، تبلغ نصف مدائحه تقريباً ولا جَرَم أن يمنح ممدوحه الأثير هذا الاهتمام بعد أن قضىَ في ظله شطر حياته الأول ، وصاحبه في كثير من غزواته الى قشتالة . وقد أحرز منزلة بين شُعراء المنصور متميزة ، حيث يقترح عليه أن يعارض قصيدة أبي نواس التي نظمها في مدح الخصيب بن عبدالحميد صاحب خراج مصر ، ومطلعها :[٢]

أجارة بيتينا أبوك غيــورُ وميسورُ ما يرُجى لديك عسيرُ

وكان قد اقترح معارضتها على صاعد البغدادي ارتجالاً فابى ، وانشد معتذراً أبياتاً في ذلك ثم ألحف عليه المنصور ، فعارض تلك القصيدة بقصيدة أولها :[٣]

جَذال الشرى إني بِكنِّ بَصيـرُ طَوتكنَّ عني خِلة وقَتيـرُ

واما قصيدة ابن دراج فقد انمازت على قصيدة صاعد ، ومطلعها[٤]

دَعي عزماتِ المستضامِ تسيرُ فتنجدَ في عرَضِ الفَلا وتَغورُ

وهي من قصائده المعدودة في الديوان ، وقد جاءت في خمسة وستين بيتاً بينما جاءت قصيدة ابي نواس برواية الصولي في أربعين بيتاً ، وهي تمثل بواكير القصائد الاندلسية ، ذات النزعة المعارضة ولكي يتبين الدارس القيمة الفنية لهذه القصيدة ، ينبغي أن يوازنها بنظيرتها .

وتمضي الايام بأبي عمر ، لتحل الفتنة الجائحة بقرطبة ، فتتوقف شاعريته ويغيض معينها ، ثم ينتقل الى بلاط ملوك سرقسطة ، بعد سنوات من الاضطراب وكانت أول قصيدة في مدح المنذر بن يحيى التجيبي سنة ٤٠٨ هـ ، ومطلعها :

---

(١) ديوانه ـ ٤ / ٣٣ ـ ٣٤ .
(٢) ديوان ابي نواس برواية الصولي ٤١٧ (ط دار الرسالة بغداد ١٩٨٠)
(٣) الذخيرة ٤ / ١ / ٢٢ وتنظر مقدمة ديوان ابن دراج ص ٤٧ .
(٤) ديوانه ٧٨ .

بُشراك من طولِ التَّرحل والسُّرى صبحٌ بروح السَّفر لاح فأسْفَرا

ويمُضي حوالي عشر سنوات في كنفِ المنذر وولده يحيى ، ليستعيد نفسه الشعري الذي كان مع أبي عامر ، وليواكب مجدهما الزاخر ، ويؤرخ انتصاراتهما الماجدة وأبرز المناسبات التي مرت بتلك المملكة .

ويعتري سنواته الاخيرة شيء من الغموض في صحبة يحيى بن منذر ، اذ لا يلبث أن يغادره الى بلاط مجاهد العامري ، في دانية فيلبث فيها سنوات حياته الاخيرة ، حيث يدركه الأجل عام ٤٢١ هـ .

ثانياً : ديوانه وموضوعاته الشعرية :

ظلت معلوماتنا من شعر ابن دراج محدودة حتى عام ١٩٦١ حيث صدرت الطبعة الاولى من ديوانه[١] بتحقيق الدكتور محمود علي مكي ، وقد اشار المحقق في مقدمة الديوان الى انه اول ديوان ينشر لشاعر اندلسي متقدم ، فلا يعرف ديوان مجموع لشاعر اندلسي منذ الفتح العربي حتى القرن الرابع الهجري ... وكانت الاحكام الادبية التي صدرت حول الشاعر وشعره ، تعتمد على النقول الضَّافية ، والاختيارات الواسعة التي قام بها مؤرخو الادب الأندلسي ، والمشرقي ، كذلك ، فجاء تحقيق الديوان ونشره إضافة كبيرة الى ديوان الشعر الأندلسي لشاعر كبير في أزهى عصوره .

احتجن الديوان حوالي ستة آلاف بيت ، في مائة وتسع وستين قصيدة .

وحين نتحدث عن موضوعاته الشعرية التي نظم فيها ، وننظر في ديوانه نظرة متفحصة ، لنحدد تلك الموضوعات ، فإننا سنواجه حالة انماز بها هذا الشاعر ، اذ تأتي جل قصائده ، واكثرها مستهلة بعبارة (ومما قاله فيه) ، فالمديح هو الركن الركين في موضوعاته وليس الشاعر بدعاً في ذلك فقد مضى على سنته جل شعراء عصره في المشرق والاندلس ، فظاهر الديوان أن قصائده تركزت في مدح ملوك الأندلس وفي مقدمتهم ممدوحاه الاثيران المنصوران ، محمد بن أبي عامر ، ومنذر بن يحيى التجيبي ، الى جانب عدد آخر من ملوك ، ووزراء ، ورؤساء ، وقضاة وجه اليهم قصائده .

---

(١) طبع في المكتب الاسلامي ـ دمشق ، على نفقة الامير علي عبد الله آل ثاني وقد صدرت طبعة ثانية عن المكتب ذاته سنة ١٩٦٨ .

اما قصائده التي لم يوجهها الى الممدوح . وتناول فيها موضوعات أخرى كوصف الطبيعة . والرثاء . فهي لا تتجاوز عشرين قصيدة .

ونلاحظ أن قصيدة المديح عند الشاعر كانت قصيدة طبعية منسجمة مع الظروف العامة للعصر . والخاصة بالشاعر . وهي لذلك تأتي متكاملة العناصر[1] . تمثل الممدوح في صورة رائعة . يجسد من خلالها معالم القيم الخلقية . وملامح الشخصية الاسلامية . وهي في ذلك تذكرنا بقول ابي تمام .

ولولا خلال سنها الشعر ما درى بغاة العلا من اين تؤتى المكارم

ومن هذه القيم التي نوه بها في قصائده . توقير حماة الدين وخليفة المسلمين . الدعوة الى الجهاد في سبيل الله . احتساب الأجر والثواب من الله . التنويه بأقامة أركان الدين من صلاة وصوم . وحج وزكاة . انتصار معاني الايمان على الشرك والضلال . نفي العقائد الباطلة . والمناهج المنحرفة . المزاوجة بين قيم الدنيا والدين . تمجيد البطولة في أشخاص الممدوحين . والإشارة الى تمثلهم بمآثر قادة المسلمين . وذكر الوقائع الاسلامية في التاريخ الاسلامي . وسنلاحظ ان لغة الشاعر قد تأثرت بمصادر التشريع الاسلامي . القرآن الكريم . والحديث الشريف .

ومن الخطأ الظن بأنّ ملكة الشّاعر وباعه قد قَصَرا به عن النظم في موضوعات الشعر الاخرى . كما حصل لعدد من شعراء العرب . فتأخرت مراتبهم عن مراتب الفحول . عند اكثر النقاد ومنهم ابن سلام الجمحى . فأصبحوا في المراتب المتأخرة . وكان حقهم التقدم[2] . وتقدم عليهم الذين تعددت اغراضهم وتنوعت .

ومن الدارسين المحدثين الذين وقفوا عند شاعرنا الدكتور احمد هيكل الذي رأى انه من الظلم لابن دراج وشعره . أن تحسب تلك القصائد مدحاً خالصاً . وأن يسقط من ديوانه ما فيه . من موضوعات أخرى . ربما كانت أهم ما فيه [3]

وأبرز تلك الموضوعات الفرعية . كانت تدور على محور الوصف . وهي نزعة شخصها أحد كبار النقاد في العصور الاسلامية المتقدمة . خلال حديثه عن تقاليد

---

(١) يرى د . هيكل ص ٢١٤ أن سطوة المنصور وابنيه كانت عاملاً دفع بالشاعر الى المدح .

(٢) طبقات فحول الشعراء ١ / ١٤٧ ، ٢ / ٥٤٥

(٣) الادب الأندلسي ٢١٥

القصيدة العربية التي تتصل ببناء القصيدة ، وتناسب أجزائها ، واعتدال اقسامها ، من استهلال بالنسيب ووصف للرحلة الى الممدوح ثم المدح .[1]

وشاعرنا يمضي على هذا النهج ، ويتوسع فيه توسعاً لا يخرجه عن طبيعة القصيدة العربية ، فيتناول موضوعات شعرية أخرى تتصل بموضوعه الرئيس ، فهو يصف رحلته الى الممدوح وما يقتضيه بعد الشقة عنه من نصب ووصب ، ومكابدة ومعاناة ، وما يتصل به من تعلق الأسرة ، وتشبث الابناء بأبيهم ، الذي يضطره ضيق الحال ، ولوازم العيش الى ضروب من الشحط والنوى . وفي هذا الأتجاه يشير الدكتور هيكل[2] الى أن أهم الاغراض الفرعية التي تضمنها الديوان في قصائد المدح هي :

وصف مواقف الوداع وفراق الاهل ، وهو وصف مشوب بمعاني الغربة والقلق والضياع .

ووصف الأسفار في البر والبحر .

كما يتناول موضوعاً لصيقاً بالممدوح هو وصف المعارك الحربية البرية والبحرية . ويعلل الدكتور احسان عباس ذلك ، بأن الشاعر لم يكن مطمئناً في ظل ممدوحه الأول ، المنصور بن ابي عامر ، وذلك ما دعاه الى الاستكثار من معنيين هما .

ذكر مفارقته لزوجته وابنته وصعوبة الفراق .

وحاجته الى الرضا والثقة بحيث يحقق حالة من الاستقرار لا يخشى معها صروف الايام[3] فمن الموضوع الأول قوله في قصيدته التي عارض بها أبا نواس[4] .

ولما تدانتْ للوداع وقد هفا ... بصبري منها أنةٌ وزفير
تناشدني عهد المودة والهوى ... وفي المهد مبغوم النداء صغير
عَيِيٌ بمرجوع الخطاب ولفظه ... بموقع أهواء النفوس خبير
تبوأ ممنوع القلوب ومهّدت ... له أذرعٌ محفوفةٌ ونحور

---

(١) الشعر والشعراء ١ / ٢٠ (ط دار الثقافة)
(٢) الادب الأندلسي ، ٢٢٥
(٣) تاريخ الادب الاندلسي ـ ١ / ٢٤١ ـ ٢٤٢
(٤) ديوانه ، ق ٧٨

وقد تقدمت ابياته الهائية ـ في هذا المجال ـ في أول قصيدة انشدها للمنصور بن أبي عامر ، وفي وصف الاسفار ، قوله يصف رحلة البحر ، في قصيدته النونية التي يخاطب فيها خيران العامري حاكم سبته سنة ٤٠٧ هـ[١]

إليك شحنًا الفلكَ تَهوى كأنّها ... وقد ذَعرت عن مغربِ الشّمس ـ غربانُ
على لجج خَضرٍ إذا هَبت الصَّبا ... تَرامى بنا فيها ثَبيرٌ وثهلان
اذا غِيض ماء البحر منها مددته ... بدمع عيون يمترينهن أشجان
وان سكنت عنا الرياح جرى بنا ... زفير الى ذكر الأحبة حنّان

وقوله في قصيدة يخاطب بها منذر بن يحيى التجيبي[٢]،

وكم عجزت عنا ذوات قوائمٍ ... فعجنا بعوج مالهن قوائم
جاجيء غربانٍ تطير لنا بها ... على مثل أطواد الفيافي نعائم
لها من أعاصير الشمال إذا هوت ... خواف ومن عصف الجنوب قوادم

ورحلة البحر كثيرا ماتتردد في أشعار ابن دراج حتى اننا نستطيع ان نعده احد أبرز ثلاثة شعراء ترك البحر أثره في شعرهم[٣]

وأما وصفه الرحلة البرية فلا يخلو ديوانه منها فمن ذلك ما جاء في قصيدته الرائية المشهورة التي عارض بها ابا نواس ،[٤]

ولو شاهدتني والصواخد تلتظي ... عَلَيَّ ورقراق السراب يمور
أسلط حر الهاجرات إذا سطا ... على حر وجهي والأصيل هجير
واستنشق النكباء وهي بوارح ... وأستوطىء الرمضاء وهي تفور
لبان لها أني من الضَيم جازعٌ ... واني على مضّ الخطوب صبور

وأما وصفه المعارك البرية والبحرية . فقد تناولها في قصائد كثيرة منها ماجاء في وصف واقعة خاضها بن أبي عامر في القضاء على ثورة زيري بن عطية . حاكم المغرب . وهي في خمسة وخمسين بيتاً منها قوله ،[٥]

تحملَ منه البحر بحراً من القنا ... يَروعُ بها أمواجه وبهول
بكلّ معالاة الشراع كأنها ... وقد حملت أسد الحقائق ـ غِيلْ

---

(١) ق ٣٣ (٢) ق ٤٤
(٣) البحر في شعر الاندلس والمغرب ، ٥٧
(٤) ق ٧٨ (٥) ق ١

اذا سَابقتْ شأوَ الرّياح تخيّلت خُـيولاً مَدى فُرسانِـهـنَ خـيولُ
أراقم تُقري ناقعَ السّم مالها بما حَمَلت دونَ الغُواة مَقيلُ

ثالثاً : شهرته وخصائصه الشعرية :

لعل ابن دراج احد المتقدمين بين شعراء عصره في شهرته حتى انه عدّ من شعراء الطبقة الأولى في الأندلس . فباهى به مؤرخو الأدب ونقاده من مشارقة واندلسيين .. وسنعرض لآرائهم في هذا المجال :

هذا أبو منصور الثعالبي (٤٢٩ هـ) يقرنه بالمتنبي فيقول « كان بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام . وهو من الشعراء الفحول . وكان يجيد ما ينظم ويقول »[١] .

وأما مواطنه ابن شهيد الأندلس (٤٢٦ هـ) الشاعر الناقد . فقد فصل القول في شاعريته وجلى لنا بملكته النقدية أبرز سماتها المتميزة . وذلك فيما نقله ابن بسام من كتابه المفقود « حانوت عطار »[٢] .

« والفرق بين أبي عمر وغيره أن أبا عمر مطبوع النظام . شديد أسر الكلام . ثم زاد بما في أشعاره . من الدليل على العلم بالخبر . واللغة . والنسب . وما تراه من حوكه للكلام . وملكة لاحرار الألفاظ . وسعة صدره . وجيشة بحره . وصَحة قدرته على البديع . وطول طلقه في الوصف . وبغيته للمعنى . وترديده وتلاعبه به وتكريره . وراحته بما يتعب الناس . وسعة نفسه فيما يضيق الأنفاس)

وقد وقف الدكتور احسان عباس وقفة متأنية . عند هذا الحكم النقدي وترجمه الى لغة النقد الحديث . ورأى أن فيه خمس سمات فنية[٣] .

وأما ابن حزم الأندلسي (٤٥٦ هـ) . وهو الشاعر الناقد فيصدر فيه حكماً نقدياً جزئياً. فيقول« لوقلت أنه لم يكن بالأندلس أشعر من ابن دراج لم أبعد » ويرى في موضع آخر انه « لو لم يكن لنا من فحول الشعراء الا أحمد بن دراج لما تأخّر عن شأو حبيب والمتنبي »[٤]

أما ابن شرف القيرواني (ت ٤٦٠هـ فقد عرض لابن دراج في مقامة أدبية . ذكر بها الشعر والشعراء . وجعله من الطّبقة المتأخرة في الزّمان . المتقدمة في الاحسان .

---

(١) يتمية الدهر ٢ / ١٠٣ تحقيق محمد محيي‌الدين عبدالحميد ط د دار الفكر ـ بيروت ١٩٧٣

(٢) الذخيرة ١ / ١ / ٦١

(٣) تأريخ الأدب الأندلس ١ / ٢٦٠

(٤) الجذوة ١١٣ ـ ١١٤

وقرنه بأبي فراس الحمداني . والمتنبي . وابن الاحنف . وابن هاني الأندلسي . وغيرهم[1] . ثم اثنى عليه بقوله : « فهو أشعر أهل مغربه . في أبعد الزمان وأقربه »[2] ويرى مؤرخ الأندلس وأديبها أبو مروان بن حيان (ت ٤٦٩ هـ) أن الشاعر « سَباق حلبة الشعراء العامريين . وخاتمة محسني أهل الأندلس أجمعين » . ويشير كيف أن اضطراب الأمور بالأندلس . أفقد الشاعر مكانته . وأضاع حقه . فأضطر الى انتجاع ملوك الطوائف ويوسع في ترجمة الشاعر وايراد أشعاره صاحب الذخيرة ابن بسام الشنتريني (٥٤٢ ه) ثم يصدر حكمه النقدي مشيداً بشاعريته فيرى :

« أنّ من ذكره لم يوفه حقه . ولا اعطاه وفقه . ولا استوفى تقدمه وسبقه ولو أوفى الأيام . واستنفذ القراطيس والاقلام »[3] وعلة ذلك أن الذين سبقوا هذا الناقد ـ كما يبدو ـ لم يطلعوا على ما وقف عليه ابن بسام فقد أورد نماذج شعرية كثيرة .[4]

ويتصل الاعجاب بالشاعر بعد حوالي قرنين من وفاته . حتى يشهد الشقندي (٦٢٩ هـ) في معرض المفاخرة بأدباء الأندلس . وذكر فضائلها . بما للشاعر من براعة وتفوق في رائيته التي عارض بها ابا نواس . فيذهب في الاعجاب بها مذاهب شتى . ويرى أنّها تفوق مدائح ابي فراس الحمداني . وشعراء عصره . لسيّد بني حمدان .[5]

أما نقاد العصر المحدثون . فقد أولوا أبا عمر عنايتهم . وأفردوه بصفحات وافية في دراساتهم . في الأدب الأندلسي . ولعل أقدم هذه الدراسات ما كتبه أحمد ضيف . حيث رأى فيه رأياً غير سديد وأصدر فيه حكماً زائفاً . غير رشيد . فكان مما قاله فيه . وهو يدرس رائيته التي عارض بها أبا نواس .[6]

« ان ابن دراج لم يكن شاعراً فطرياً يقول الشعر عن شعور صحيح . أو دافع نفسي . وانما هو مقلد بارع . حتى في المعاني التي لم تشعر بها نفسه . وفي وصف

---

(١) الذخيرة ٤ / ١ / ١٩٨

(٢) نفسه ٤ / ١ / ٢١١

(٣) الذخيرة ١ / ١ / ٦٢ وقد استغرقت ترجمته الصفحات ٥٩ ـ ٩٦ .

(٤) الذخيرة ١ / ١ / ٥٩ ـ ١٠٣ .

(٥) النفح ٢ / ٧٨٢ .

(٦) بلاغة العرب ١٠٠ .

الأمكنة . التي لم يرها الا في كلام الشعراء . فهو من الذين اتخذوا الشعر صناعة لفظية . وآلة من الآت الكلام . ليمدح من يريد »

وجاء أحمد أمين ليذهب مذهباً مماثلاً لرأي زميله أحمد ضيف فيتهمه بالتقليد الذي كان بدافع الرغبة في تأكيد الذات الأندلسية .[١]

وقد كفانا الدكتور أحمد هيكل . مؤونة الرد على هذين الناقدين . في مناقشة طريفة ومحاورة علمية هادئة .[٢]

ومن المستشرقين الذين أصدروا أحكامهم في الشاعر . المستشرق الاسباني غرسيه غومس . الذي وجد في لغة الشاعر صعوبة في فهمها . وهو أمر طبعي على أمثاله من المستشرقين . وذلك ما جعله يتجرأ على الشاعر . فيصفه بالتعقيد . وعسر الفهم . فشبهه بالشاعر الأسباني « جنجرة » . ولا ننكر أن الشاعر كان ذا لغة جزلة الالفاظ . متينة التراكيب . لكنها ليست لغة معقدة . على نحو ما يرى غومس .

وخاتمة اراء الدارسين المحدثين ممن أولوا الشاعر صفحات واسعة من دراساتهم الدكتور أحمد هيكل والدكتور احسان عباس .

أما هيكل فقد تناول اشعار الشاعر بالدراسة المتمحصة الدقيقة . فوقف عند موضوعاته الشعرية . محللاً إياها مستشهداً بنماذج من أشعاره . ثم انتقل الى أبرز السمات الفنية ورأى، أنها تتمثل في خمس :

اللون المحلي . الشعور الاسري . والتحليل المعنوي . والوصف النفسي والنضح الثقافي . وقد وضح معالم هذه السمات مستطرداً في تحليله شافعاً ذلك بنماذج من اشعاره .[٣] والاشارة الى السمة الثانية ـ الشعور الأسري ـ تقدمت الاشارة اليها في موضوعاته الشعرية تحت عنوان « وصف مواقف الوداع »

وقد وردت الاشارة . في حالات مختلفة لأفراد أسرته . في حوالي عشرين موضعا من الديوان . وذلك الذي دعا الدكتور هيكل أن ينعته بـ « شاعر العاطفة الأسرية »[٤] و « شاعر الأسرة » و « شاعر الحب الأسري » .[٥] وهذه السمة لا يشاركه فيها شاعر عربي آخر !

(١) ظهر الاسلام ٢ / ١٣٤ .

(٢) الأدب الأندلسي ٢٢٥ .

(٣) الادب الاندلسي ٢٢٦ ـ ٢٢٣ . وقد كتب الدكتور هيكل بحثاً بعنوان ، ابن دراج شاعر العاطفة الاسرية والأصالة الاندلسية ، دراسات أدبية ص ٢٤٣ ـ ٢٦٧ (ط دار المعارف ـ القاهرة ١٩٨٠) .

(٤) دراسات ادبية ص ٢٦٠ .

(٥) الادب الاندلسي ٢٢٠ .

وأما الدكتور احسان عباس فقد وقف عند شاعرية الشاعر . وشخص ابرز سماتها . ورأى أنها تتمثل في ست هي :[1]

ميله الى المقايسة في قصائده . ويشير بذلك الى نزعته المعروفة بالمعارضة . وتعلقه بالصورة الواحدة مسافة طويلة في شعره . والحاحه على جوانبها الى حد الاملال . وسيطرة الصور الحربية في شعره . ويعلل ذلك بأن الشاعر جنح الى نوع من التعويض . لأنه كان عاجزاً عن المشاركة في الحرب وكذلك استخدامه في اساليبه الشعرية فنون البديع . من طباق وجناس . وميله الى المطابقات في الفاظه .واكثاره من الاشارات التأريخية على طريقة أبي تمام .وميله الى المعاني المعقدة بحيث تصبح معانيه عسيرة الحل تتطلب سبراً وغوراً في أعماقها . ويبدو ذلك في استعاراته المستخدمة في قصائده .

ويخلص في مجال تحديد السمات الى « ان ابن دراج أول شاعر لا ينزل شعره عن مستوى الجزالة . وأن صياغته بالغة درجة عجيبة من القوة . حتى ليمكننا أن تقول أن اغرابه في طلب الصورة . ثم محافظته على هذا اللون من الصياغة القوية كان مزجاً عجيباً بين طريقة العرب وطريقة المحدثين . وتجيء قصيدته على مسرد واحد . لا ارتفاع فيها ولا انخفاض فليس في قصائد ابن دراج ذروة ينتقل بها القاريء من المستوى العام الى ثبج الموج .[2]

والذي نراه في شعر الشاعر انه يتميز بصفتين رئيستين تطغيان على معظم قصائده هما :

اولاً : ـ سعة ثقافته الشعرية . وامتدادها الى ابعادٍ بعيدة الاغوار . فقد استطاع ان يوظف ثقافته الاسلامية . ويسخرها في ديوانه . خير توظيف . وافضل تسخير . فأنت لا تحتاج الى كبير جهدٍ ولا مكابدة لكي تستبين هذه الثقافة . وهي ثقافة اسلامية تستمد من منابع الثقافة العربية الاسلامية . كالقرآن الكريم . والحديث النبوي الشريف والامثال العربية . والتأريخ الاسلامي بأحداثه المتمثلة في غزوات المسلمين والاشادة بقادتهم . وكذلك تبدو ثقافته بالاعتماد على ديوان الشعر العربي في عصوره المختلفة .

ومما يؤكد لنا عناية الشاعر باظهار ثقافته وعنايته بلغة شعره الى درجة التنقيح والتجويد . ما رواه الحميدي من أن المنصور بن ابي عامر . لما فتح شنت ياقب

(١) تاريخ الادب الاندلسي ١ / ٢٦٠ ـ ٢٦٦

(٢) نفسه ١ / ٢٦١

استدعى أبا مروان الجزيري . وابا عمر بن دراج . وأمر بأنشاء كتب الفتح الى الحضرة . فأما الجزيري . فقال ، سمعاً وطاعة . وأما ابن دراج فقال ، لا يتم لي ذلك في اقل من يومين أو ثلاثة وكان معروفاً بالتنقيح والتجويد والتؤدة فلما تم له ذلك اشتهر ما اتى منه واشتهرت نسخة الفتح . ولم تزل منقولة متداولة الى عصر الحميدي (ت ٤٨٨ هـ)[١] ولم يكن هذا شأنه في الرسائل بل نجد عنايته واضحة في أشعاره كذلك .[٢]

ومن نماذج شعره التي تعكس لنا هذه السمة قوله يمدح سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين (ت ٤٠٧ هـ)[٣]

١ هنيئاً لهذا الدهر روح وريحان ولـلـديـن والدنـيا أمان وإيـمان
٢ بأن قعيد الشرك قد ثل عرشه وأن أمـير الـمؤمـنـيـن سـلـيـمان
٦ وأنقذ دين الله من قبضة العدى وقد قاده للشرك ذل وإذعان
٨ وجدد للإسلام ثوب خلافة عليها من الرحمن نور وبرهان
١٠ به شد أزر الملك وابتهج الهدى وفاض على الإسلام حسن وإحسان
١٣ سميُّ النبي المصطفى وابن عمه ووارث ما شادت قريش وعدنان
١٩ قبائل من أبناء عاد وجرهم لهم صفوُ ما تنميه عاد وقحطان
٢٨ دلفت بهم للفتح تحت عجاجة كأن مُـثـيـرَيُـهـا عـلـيٌ وهـمدان
٥١ بيمن الإمام الظافر الغافر الذي صفا منه للإسلام سر وإعلان

ومن ذلك قوله في قصيدة يمدح فيها عبد الملك بن المنصور بن ابي عامر[٤]

١ جهز لنا في الارض غزوة محتسب واندب إليها من يساعد وانتدب
١٤ واستوف بهجتها وطيب نسيمها فإذا دنا رمضان فأسجد واقترب
١٥ وصل الجهاد الى الصيام بعزمة من ثائر يرضى الاله إذا غضب
١٦ فالنصر مضمون على بر الهدى وعواقـب الراحات أثـمار الـتـعـب

وقوله من قصيدة يخاطب فيها المنصور بن أبي عامر[٥]

٣٣ إن « امرأ القيس » في بعض لمتهمٌ وفي يديه لواء الشعر إن ركبا
٣٤ والشعر قد أسر « الأعشى » وقيده خبراً وقد قيل والأعشى إذا شربا

(١) الجذوة ص ١١٢ .
(٢) تنظر قصائده رقم (١٠٢ ، ١٢٠ ، ١٢٨) ومقدمة المحقق للديوان ص ٥٥ .
(٣) ق ٢٦ .
(٤) ق ١٥ .
(٥) ق ١٠٠ .

٥٣ وصفوة الله من أنصار دعوته ومن تنقى لنصر الدين وانتخبا
٥٥ حيث اعترى فخر إسماعيل في سلفي هودٍ وحيث تلاقت خندفٌ وسبا

وله قصيدة يخاطب فيها المنصور بن أبي عامر وابنيه عبد الملك وعبد الرحمن يشيد ببلائهما في غزوة شنتياقب وذلك سنة ٣٨٧ هـ . وقد أشرنا آنفاً الى موقف الشاعر حين طلب اليه أن يكتب كتاب الفتح . وتأخره في ذلك :[١]

١ لك البشرى ودمت قرير عين بشأويْ كوكبيك الثاقبين
٢ مليكي حمير نشأ وشبا بتيجان السناء متوجين
٥ هما للدين والدنيا محلا سويدا واهما في المقلتين
١٧ ولا نسيت عهود الحارثين ولا ضاعت وصايا المنذرين
١٨ ولا خزيت مآثر ذي كلاعٍ ولا أخوت كواعب ذي رعين
٤٧ لئن وجدته أشأم من قدار لقد عدمته أخيب من حنين
٤٩ طريد الروع لو حسب الزُبانى تلاحظه لغار مع البطين

٢ ـ ان ديوانه كان مرآة صادقة لأحداث عصره فقد تفاعل الشاعر مع تلك الاحداث تفاعلاً تاماً صور لنا ابعادها السياسية بشكل خاص حتى اننا نستطيع ان تعد ديوانه تاريخاً دقيقاً لغزوات ممدوحة الأثير المنصور بن ابي عامر الذي غزا ممالك اسبانية اثنتين وخمسين غزوة وقد أشار الدكتور محمود علي مكي الى هذه السمة اشارة سريعة .[٢] وبعد أن تحل الفتنة بقرطبة يرحل ابن دراج ليكون شاعر المنذر بن يحيى التجيبي وفيه وجه ثلث شعره[٣] وتأتي اشارة الدكتور هيكل الى هذه السمة ضمن ما رآه في شعره واطلق عليه (اللون المحلي)

ومما استطعنا الوقوف عليه من قصائده المقترنة بالاحداث السياسية ما عرض له بذكر وفادة شانجة بن غرسية بن فردلند الى المنصور بن ابي عامر سنة ٣٨٢ هـ .[٤] وكذلك ما أرخه لوفادة غند شلب بن شانجة بن غرسية سنة ٣٨٣ هـ .[٥] وما أرخه لحملته على قشتالة سنة ٣٨٤ هـ .[٦] وما اشار اليه في تجهيز الجيوش الى زيري بن عطية بعد سنة ٣٨٦ هـ[٧] وتقترن ثلاث قصائد له بفتح شنتياقه العاصمة القديمة لمنطقة جيليقية سنة ٣٨٧ هـ[٨] ويؤرخ الشاعر لأسر المنصور لأبن فردلند سنة ٣٨٤ هـ .[٩] كما يؤرخ لبعض صوائف المنصور سنة ٣٨٨ هـ[١٠]

---

(١) ق ١٠٢ (٢) مقدمة الديوان ٥٦ (٣) مقدمة الديوان ٧٢ (٤) ق ١١٢ (٥) ق ١١٧ (٦) ق ٤ (٧) ق ١ (٨) تنظر ق ١٠٢ ، ١٢٠ ، ١٢٨ (٩) ق ١١٨ (١٠) ق ١١٩ وفي ق ١١١ يهنئه في عودة من غزاة الى مملكة ليون .

وللغزوات التي غزاها ابنه عبد الملك سنة ٣٩٣ هـ .[١]

ونجد بعض قصائد الديوان تسجل العلاقات الدبلوماسية التي اقترنت بالمنذر بن يحيى التجيبي فمن ذلك ما سجله لعقد الصهر بين ابن فردلند وابن ريموند سنة ٤٠٨ هـ[٢] وما أشار اليه حين وصل المنذر بنت ابن فردلند الى زوجها ابن رايمند .[٣] كذلك سجل لنا وصفاً لقدوم الامير ابن ميرو الى المنذر في سرقسطة .

ولنا أن نقف عند بعض قصائده التي ارخ فيها لتلك الاحداث والوقائع ومنها قصيدته التي وجهها الى المنصور بعد انصرافه عن بنبلونة ومطلعها :[٤]

سعي شفى بالمنى قبل انتها امده ... ويوم سعد ارانا الفتح قبل غده

وفيها يقول :

٣٩ فتلك نفس ابن شنج لا مآل لها ... من ميتة السيف أو عيشٍ على نكده
٤٦ وجاحم من حريق لا خمود له ... إلا ونفس ابن شنج وسط مفتأده
٤٩ فتت منها قواصي « بنباويته » ... بالهدم والنار فتاً فت في عضده
٥٦ وقد تركت ابن شنج فل معترك ... إن لم يمت من ظباه مات من كمده
٥٨ وفرذلند رددت الملك في يده ... وما رجا غير رد الروح في جسده

وتتجلى هذه السمة في قصيدة أخرى يخاطب فيها المنذر بعد ايابه من الغزوة التي عقد فيها الصهر بين ابن فردلند وابن رايمند ومطلعها :[٥]

عمرت بطول بقاءك الاعمار ... وجرت برفعة قدرك الاقدار
٣٠ بهرت فهن على «ابن يحيى» في الوغى ... نورٌ له وعلى «ابن شنج» نارُ
٤٤ ودنا « ابن رذمير » يزلزل خطوه ... أمل تقسم نفسه وحذارُ
٤٦ ولقبلُ أيقن « فرذلند » ماله ... إلا إليك من الحمام فرارُ
٥٢ أصبيتَ منها ملك « رذمير » وقد ... مشت الدهور عليه والأعصارُ
٥٤ وبسطت من « قشتلة » يد آمن ... لرضاك فيها بارقٌ وسوارُ

---

(١) ق ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦ .
(٢) ق ٤٢
(٣) ق ٤٤
(٤) ق ٤٢
(٥) ق ٤٢ والبارق نوع من الاسورة .